# المغني في التفسير

## المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ


د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

# «المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

## المُحرّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

### [تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

**د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ**

**د/ آلَاء رِضَا**

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

# «المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

## المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

### سورةُ الإسراءِ

### (المجلَّدُ الرابعَ عشرَ)

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة إلكترونية

# تَفْسِيرُ
# سُورَةِ الإسراءِ

# سُورةُ الإسراءِ

## سورةُ الإسراءِ

تُسَمَّى هذه السُّورةُ سُورةَ (بني إسرائيلَ)،[1] ومما يدلُّ على ذلك:

1- عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان النبيُّ - ﷺ - لا يَنامُ على فِراشِه، حتى يقرأَ كُلَّ لَيلةٍ بـ «بني إسرائيلَ» و«الزُّمَر»)).[2]

---

(1) وجهُ تَسميتِها بذلك أنَّه ذُكِرَ فيها مِن أحوالِ بني إسرائيلَ ما لم يُذكَرْ في غَيرِها، ولِقَولِه فيها: وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ [الإسراء: 4].

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (288/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (5/15).

(2) أخرجه الترمذي (2920) واللفظ له، وأحمد (24433)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (11444).

قال الترمذي: (حسنٌ غريبٌ)، ووثَّق رجالَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (275/2)، وحسَّنه ابنُ حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (157/3)-، وجوَّد إسنادَه ووثَّقَ رجالَه ابنُ باز في ((النكت على التقريب)) (172)، وصَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (2920).

2- عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه قال: (سُورةُ «بني إسرائيلَ» و«الكَهفِ» و«مَريمَ» و«طه» و«الأنبياءِ»: هُنَّ مِن العِتاقِ الأُوَلِ،[3] وهُنَّ مِن تِلادي).[4][5]

وتُسَمَّى أيضًا سورةَ (الإسراء) كما في كثيرٍ مِن المصاحِفِ.[6]

فضائل السورة وخصائصها:

1- كان النَّبيُّ - ﷺ - يقرؤُها كُلَّ لَيلةٍ:

فقد كان النبيُّ - ﷺ - لا يَنامُ على فِراشِه، حتى يقرأَها كُلَّ لَيلةٍ، كما في حديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها المتقدِّمِ قريبًا.

2- أنَّها مِن السُّوَرِ العَتيقةِ، ومِن قَديمِ ما حُفِظَ عند الصَّحابةِ:

كما في أثر عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه المتقدم قريبًا.

(3) العتاق الأُوَل: أي: السُّوَر التي أُنزِلَت أوَّلًا بمكَّة.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (3/179).
(4) تِلادي: أي: مِن أوَّلِ ما أخَذْتُه وتعلَّمْتُه بمكَّةَ.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (1/194).
(5) رواه البخاري (4739).
(6) سُمِّيت بذلك؛ لذِكْرِها الإسراءَ بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أوَّلِها، واختُصَّت بذِكرِه.
يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (15/5).
وتُسمَّى أيضًا سورةَ (سبحان)؛ لافتتاحِها به.
يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (3/5)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/288).

سورةُ الإسراءِ مَكِّيَّةٌ،[7] وحُكِي الإجماعُ على ذلك.[8]

مقاصد السورة:

1- تَرسيخُ أصولِ العَقيدةِ الإسلاميَّةِ، وتَنقيتُها مِن كُلِّ ما يَشوبُها .

2- الحديثُ عن الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبيانُ مَوقِف المُشرِكينَ منه .

3- بيانُ بعضِ التَّكاليفِ الشَّرعيَّةِ المتضَمِّنةِ لقواعِدِ السُّلوكِ الفَرديّ والجَماعيّ .

مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

1- ذِكرُ الإسراءِ، وبَيانُ حِكمَتِه، والإشارةُ إلى المِعراجِ.

---

(7) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا الآياتِ (26، 32، 33، 57)، ومِن آية (73) إلى آية (80) فمَدنيَّةٌ.

وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا قولَه عزَّ وجَلَّ: إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ...

[الآية: 85].

وقيل غيرُ ذلك.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (411/14)، ((الوسيط)) للواحدي (93/3)، ((تفسير الزمخشري)) (646/2)، ((تفسير ابن عطية)) (441/3)، ((تفسير القرطبي)) (203/10)، ((تفسير البيضاوي)) (247/3).

(8) ممَّن نقل الإجماعَ: بشيرُ بن حامد أبو النعمان –نسبه إليه أبو حيان–، ومجد الدين الفيروزابادي، والبقاعي.

يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (7/7)، ((بصائر ذوي التمييز)) (288/1) للفيروزابادي، ((مصاعد النظر)) (228/2) للبقاعي.

قال ابنُ عطية (٥/ ٤٣٣): «هذه السورة مكية إلا ثلاث آيات: قوله – عز وجل –: ﴿وإن كادوا ليفتنونك﴾، وقوله: ﴿وإن كادوا ليستفزونك﴾، نزلت حين جاء رسولَ الله – ﷺ – وفدُ ثقيف، وحين قالت اليهود: ليست هذه بأرض الأنبياء.

وقوله – عز وجل –: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق﴾، وقوله – عز وجل –: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله﴾، وقال ابن مسعود –في بني إسرائيل والكهف–: إنهن من العِتاق الأُوَل، وهن من تلادي.

يريد أنهن من قديم كسبه».

وفي مقدمة السورة عند ابن كثير (٨/ ٣٧٣) أنها مكية، وذكَرَ أثر ابن مسعود.

2- ذكرُ الكتابِ الذي آتاه الله تعالى لموسَى عليه السلامُ؛ ليكونَ هدايةً لقومِه، وإخبارُ بني إسرائيلَ أنَّهم سيُفسدونَ في الأرضِ مَرَّتَينِ.

3- بيانُ فضلِ القُرآن، وأنه يهدي لِلَّتي هي أقومُ، ويبشِّرُ المؤمنينَ بالأجرِ الكبيرِ.

4- إثباتُ دلائلِ تفرُّدِ اللهِ بالإلهيَّةِ، والاستِدلالُ بآيةِ اللَّيلِ والنَّهارِ وما فيهما مِنَ المِنَن على إثباتِ الوَحدانيَّةِ، وأنَّ كُلَّ إنسانٍ يكونُ معه كِتابُه قد سُجِّلَت فيه حَسَناتُه وسَيِّئاتُه.

5- تقرير قاعِدة التَّبِعةِ الفَرديَّةِ في الهُدى والضَّلالِ، وقاعِدةِ التَّبِعةِ الجماعيَّةِ في التصَرُّفاتِ والسُّلوكِ.

6- بيانُ سُنَّةِ الله سبحانَه في القُرونِ الماضيةِ الذين أهلَكَهم، وأنَّ عاقبةَ الترفِ والفسقِ الدمارُ والهلاكُ.

7- بيانُ أنَّ سعادةَ الآخرةِ منوطةٌ بإرادتِها، وبأنْ يسعَى الإنسانُ لها وهو مؤمنٌ.

8- الأمرُ بعِبادةِ الله سُبحانَه، وذِكرُ مُقَوِّماتِ الحَياةِ الاجتِماعيَّةِ مِن الإحسانِ للوالِدَينِ، وذَوي القُربى، والتوسُّطِ في إنفاقِ المالِ، والنَّهيُ عن قَتلِ الأولادِ، والنَّهيُ عن قَتلِ النَّفسِ وعن الزِّنا، والنَّهيُ عن التصَرُّفِ في مالِ اليَتيمِ إلَّا بالتي هي أحسَنُ حتى يَبلُغَ أشُدَّه، والأمرُ بالوَفاءِ بالعَهدِ، والوَفاءِ بالكَيلِ والميزانِ، والنهيُ عن أن يَقفُوَ الإنسانُ ما لا عِلْمَ له به.

9- النهيُ عن اتخاذِ آلهةٍ معَ الله، وبيانُ الدليلِ على بطلانِ ادعائِهم أنَّ مع الله آلهةً أخرى، والتنديدُ بعاداتِ أهلِ الجاهليَّةِ في كراهِيَتِهم للبَناتِ.

10- بيانُ تَصريفِ اللهِ سُبحانَه في القُرآنِ؛ ليتَذَكَّرَ النَّاسُ، إلَّا أنَّه لم يزِدْهم إلَّا نفورًا.

11- ذِكرُ تَسبيحِ كُلِّ ما في الوجودِ لله سبحانَه.

12- ذكرُ جانبٍ مِن أقوالِ المشركينَ فيما يتعلَّق بالبعثِ، ودحضُها، وأمرُ المؤمنينَ بقولِ الكلمةِ التي هي أحسنُ.

13- ذكرُ قِصَّةِ الخَلقِ والتَّكوينِ، وتكريمِ آدمَ بالأمرِ بالسُّجودِ له، ومَوقِفِ إبليسَ مِن ذلك، وإعلانِه مَوقِفَه مِن ذُرِّيَّةِ آدمَ، وبيانُ أنَّ الشَّيطانَ ليس له سُلطانٌ على عِبادِ اللهِ المُؤمِنينَ.

14- بَيانُ أنواعٍ مِن نِعَمِ اللهِ في البَرِّ والبَحرِ، وأنه يَكشِفُ الضُّر عَمَّن يَستَغيثونَ به، فإذا كشَفَ الضُّرَّ عنهم أعرَضوا.

15- ذكرُ تكريمِ الله لبني آدمَ، وبعضِ مَشاهِدِ يَومِ القيامةِ.

16- بيانُ تثبيتِ الله لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، وأمرُه بالمداومةِ على الصلاةِ، وعلى قراءةِ القرآنِ، وأن يَدعو اللهَ أن يُحسِنَ مُدْخَلَه ومُخْرَجَه، ويُعلِنَ مَجيءَ الحَقِّ وزُهوقَ الباطِلِ.

17- الثناءُ على القرآنِ وبيانُ إعجازِه، وذكرُ المطالبِ المتعنتةِ التي طالب بها المشركونَ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ورَدُّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على هذا بأنَّه خارِجٌ عن وظيفةِ الرَّسولِ وطَبيعةِ الرِّسالةِ.

18- حكايةُ جانبٍ مِن قصةِ موسَى -عليه السلامُ- معَ فرعونَ.

19– بيانُ أنَّ هذا القرآنَ أنزَله الله تعالى بالحقِّ، وبالحقِّ نزَل، وأنَّه فصَّـــله وبيَّنه وأحكَمه ليقرأَه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على الناسِ على تؤدةٍ وترتيلٍ، وأنَّه نزَّله مفرقًا، وأنَّ أهلَ الكِتابِ والعُلَماءَ الذين عَرَفوا الوَحيَ والنبُوَّةَ إذا يُتلَى القُرآنُ عليهم يَخِرُّونَ للأذقانِ سُجَّدًا خاشِعِينَ لله.

20– خَتمُ السُّورةِ بالأمرِ بحمدِ الله الذي لم يتَّخذْ ولدًا، ولم يكنْ له شريكٌ في الملكِ، ولم يكنْ له وليٌّ مِن الذلِّ، والأمرِ بتكبيرِه.

# سورةُ الإسراءِ

## الآيات (1-3)

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (2) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3)

## غريب الكلمات:

بَارَكْنَا حَوْلَهُ: أي: جَعَلْنا حولَه البركةَ، والبركةُ هي: ثبوتُ الخيرِ الإلهيّ في الشيءِ، وأصلُ (برك): الزِّيادةُ والنماءُ، والكثرةُ والاتساعُ.

وَكِيلًا: أي: مانعًا وحافظًا وكفيلًا، ووكيلُ الرجلِ في مالِه هو الذي كفَله له، وقام به، وأصلُ (وكل): يدلُّ على اعتمادِ غيرِك في أمرِك.

ذُرِّيَّةَ: الذُّرِّيَّةُ: الأولادُ، وأولادُ الأولادِ، فهي اسمٌ يَجمعُ نَسلَ الإنسانِ مِن ذَكَرٍ وأُنثَى. قيل: أصلُها مِن ذرأَ، أي: خلَقَ؛ لأنَّها خلقُ اللهِ، وحُذِفت الهمزةُ منها. وقيل: أصلُها مِن الذَّرِّ، بمعنَى التَّفريقِ؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى ذَرَّهم في الأرضِ.

## تفسير الآيات:

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1).

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا.

أي: تَنزيهًا لله[9] عن كُلِّ ما لا يَليقُ به، الذي سيَّرَ عَبدَه مُحَمَّدًا[10] في جُزءٍ مِنَ اللَّيلِ.[11]

---

(9) قال الشوكاني في قوله تعالى: سُبْحَانَ: (هو مصدر سبَّح، يقال: سبَّح يسبّح تسبيحًا وسُبحانًا...

ومعناه: التنزيهُ والبراءةُ لله مِن كلِّ نقصٍ).

((تفسير الشوكاني)) (245/3).

قال ابنُ جرير (١٤/ ٤١١ – ٤١٢): «وللعرب في التسبيح أماكن تستعمله فيها: فمنها الصلاة، كان كثيرٌ من أهل التأويل يتأولون قول الله: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ [الصافات: ١٤٣]: فلولا أنّه كان من المصلين.

ومنها الاستثناء، كان بعضهم يتأول قول الله تعالى: ﴿ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾ [القلم: ٢٨]: لولا تستثنون، وزعم أنّ ذلك لغة لبعض أهل اليمن، ويستشهد لصحة تأويله ذلك بقوله: ﴿إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين * ولا يستثنون﴾ [القلم: ١٧ – ١٨]، قال: ﴿قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾ [القلم: ٢٨]، فذكَّرهم تركهم الاستثناء.

ومنها النور، وكان بعضهم يتأول في الخبر الذي روي عن النبي – ﷺ –: «لولا ذلك لأحرقت سُبُحات وجهه ما أدركت من شيء» أنه عنى بقوله: «سبحات وجهه»: نور وجهه».

(10) قال ابنُ الجوزي: (لا خِلافَ أنَّ المرادَ بعَبدِه هاهنا: مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم).

((تفسير ابن الجوزي)) (8/3).

وقال الخازن: (أجمَعَ المفَسِّرونَ والعُلَماءُ والمتكَلِّمونَ: أنَّ المرادَ به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لم يختلِفْ أحَدٌ من الأمَّةِ في ذلك).

((تفسير الخازن)) (109/3).

ذَهَبَ ابن القيم إلى أنّ الباء في قوله تعالى: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ للمصاحبة، فقال (٢/ ١٣٢ – ١٣٣): «في قوله تعالى: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ دون: بعث بعبده، وأرسل به.

ما يُفِيد مصاحبته له في مسراه؛ فإن الباء هنا للمصاحبة، كهي في قوله: هاجر بأهله، وسافر بغلامه.

وليست للتعدية؛ فإنّ» أسرى «يتعدى بنفسه، يقال: سري به، وأسراه.

وهذا لأنّ ذلك السرى كان أعظم أسفاره – ﷺ –، والسفر يعتمد الصاحب، ولهذا كان – ﷺ – إذا سافر يقول: «اللهم، أنت الصاحب في السفر».

فإن قيل: فهذا المعنى يفهم من الفعل الثلاثي لو قيل: سرى بعبده.

فما فائدة الجمع بين الهمزة والباء؟ ففيه أجوبة: أحدها: أنهما بمعنى، وأن» أسرى «لازم ك» سرى «، تقول: سرى زيد، وأسرى. بمعنًى واحد، وهذا قول جماعة.

الثاني: أنّ» أسرى" متعدّ، ومفعوله محذوف، أي: أسرى بعبده البراق.

هذا قول أبي القاسم السهيلي وغيره.

ويشهد للقول الأول قول الصديق: أسرينا ليلتنا كلها ومِن الغد حتى قام قائم الظهيرة.

والجواب الصحيح: أنّ الثلاثي المتعدي بالباء يفهم منه شيئان: أحدهما: صدور الفعل من فاعله.

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله – ﷺ – قال: ((أُتيتُ بالبُراقِ –وهو دابَّةٌ أبيضُ طويلٌ، فَوقَ الحِمارِ ودونَ البَغلِ، يَضَعُ حافِرَه عند مُنتهى طَرْفِه[12] – قال: فرَكِبْتُه حتى أتيتُ بيتَ المَقدِس، قال: فرَبَطْتُه بالحَلْقةِ التي يَربِطُ به الأنبياءُ، قال: ثمَّ دخلتُ المَسجِدَ، فصَلَّيتُ فيه ركعتَينِ، ثمَّ خَرَجتُ فجاءني جبريلُ عليه السَّلامُ بإناءٍ مِن خَمرٍ، وإناءٍ مِن لَبَنٍ، فاخترْتُ اللَّبَنَ، فقال جبريلُ – ﷺ –: اخترْتَ الفِطرةَ. ثمَّ عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ، فاستفتَحَ جبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن

---

الثاني: مصاحبته لما دخلت عليه الباء.

فإذا قلت: سريت بزيد، وسافرت به.

كنت قد وجد منك السرى والسفر مصاحبًا لزيد فيه، كما قال:

ولقد سريت على الظلام بمعشر ومنه الحديث: أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها.

وأما المتعدي بالهمزة فيقتضي إيقاع الفعل بالمفعول فقط، كقوله تعالى: ﴿واللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِن بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿فَأَخْرَجْناهُمْ مِن جَنّاتٍ وعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ٥٧]، ونظائره.

فإذا قرن هذا المتعدي بالهمزة أفاد إيقاع الفعل على المفعول مع المصاحبة المفهومة من الباء، ولو أتى فيه بالثلاثي فهم منه معنى المشاركة في مصدره وهو ممتنع، فتأمله.

(11) قال ابنُ تيمية: (التسبيحُ يقتضي التنزيهَ والتَّعظيم، والتعظيمُ يستلزمُ إثباتَ المحامدِ التي يُحمد عليها، فيقتضي ذلك تنزيهَه وتحميدَه وتكبيرَه وتوحيدَه).

((مجموع الفتاوى)) (125/16).

وقال أيضًا: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا.

والمرادُ بعبدِه عابدُه، المطيعُ لأمرِه؛ وإلَّا فجميعُ المخلوقين عبادٌ بمعنى أنَّهم معبَّدون مخلوقونَ مدبَّرون).

((مجموع الفتاوى)) (503/10).

(11) عندَ مُنتهَى طَرْفِه: أي: أنَّه يضعُ حافرَه عندَ منتهَى ما يراه بطرفِه.

يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (356/7).

(12) عندَ مُنتهَى طَرْفِه: أي: أنَّه يضعُ حافرَه عندَ منتهَى ما يراه بطرفِه.

يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (356/7).

معك؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بآدَمَ، فرَحَّبَ بي، ودعا لي بخيرٍ، ثم عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ الثَّانيةِ، فاستفتَحَ جِبريلُ عليه السَّلامُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بابنَيِ الخالةِ: عيسى ابنِ مَريمَ، ويحيى بنِ زكريَّاءَ، صَلَواتُ اللهِ عليهما، فرحَّبا، ودَعَوَا لي بخير، ثمَّ عَرَجَ بي إلى السَّماءِ الثَّالثةِ، فاستفتحَ جبريلُ، فقيل: مَن أنت؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ - ﷺ -، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بيوسُفَ - ﷺ -، إذا هو قد أُعطِيَ شَطْرَ الحُسنِ، فرَحَّبَ ودعا لي بخيرٍ، ثم عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ الرَّابعةِ، فاستفتَحَ جِبريلُ عليه السَّلامُ، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ، قال: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا فإذا أنا بإدريسَ، فرحَّبَ ودعا لي بخيرٍ، قال الله عزَّ وجلَّ: وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا [مريم: 57] ، ثم عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ الخامسةِ، فاستفتَحَ جِبريلُ، قيل: مَن هذا؟ فقال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا فإذا أنا بهارونَ - ﷺ -، فرَحَّبَ ودعا لي بخيرٍ، ثم عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ السَّادسةِ، فاستفتَحَ جِبريلُ عليه السَّلامُ، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بموسى - ﷺ -، فرحَّبَ ودعا لي بخيرٍ، ثمَّ عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ السَّابعةِ، فاستفتَحَ جِبريلُ، فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ - ﷺ -، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا فإذا أنا بإبراهيمَ - ﷺ - مُسنِدًا ظَهرَه إلى البيتِ المَعمورِ، وإذا هو يَدخُلُه كُلَّ يَومٍ سَبعونَ ألفَ مَلَكٍ لا

يَعودونَ إليه، ثمَّ ذهَبَ بي إلى السِّدرةِ المُنتهى، وإذا ورَقُها كآذانِ الفِيَلةِ، وإذا ثمَرُها كالقِلالِ، قال: فلمَّا غَشِيَها مِن أمرِ اللهِ ما غشِيَ تغيَّرَت، فما أحدٌ مِن خَلقِ اللهِ يستطيعُ أن يَنعَتَها مِن حُسنِها! فأوحى اللهُ إليَّ ما أوحى، ففَرَض عليَّ خمسينَ صلاةً في كُلِّ يومٍ وليلةٍ، فنزَلْتُ إلى موسى – ﷺ –، فقال: ما فَرَضَ ربُّك على أمَّتِك؟ قلتُ: خَمسينَ صَلاةً، قال: ارجِعْ إلى ربِّك فاسألْه التَّخفيفَ؛ فإنَّ أُمَّتَك لا يُطيقونَ ذلك، فإنِّي قد بلَوتُ بني إسرائيلَ وخَبَرْتُهم، قال: فرَجَعْتُ إلى ربِّي، فقلتُ: يا رَبِّ، خَفِّفْ على أمَّتي، فحَطَّ عني خَمسًا، فرجَعْتُ إلى موسى، فقُلتُ: حَطَّ عني خمسًا، قال: إنَّ أمَّتَك لا يُطيقونَ ذلك، فارجِعْ إلى رَبِّك فاسأَلْه التَّخفيفَ. قال: فلَمْ أزَلْ أرجِعُ بين ربِّي تبارك وتعالى، وبينَ موسى عليه السَّلامُ، حتى قال: يا مُحَمَّدُ، إنهنَّ خَمسُ صَلواتٍ كُلَّ يومٍ وليلةٍ، لكُلِّ صَلاةٍ عَشْرٌ، فذلك خمسونَ صَلاةً، ومَن همَّ بحَسَنةٍ فلم يعمَلْها كُتِبَت له حسَنةً، فإنْ عَمِلَها كُتِبَت له عَشرًا، ومَن همَّ بسَيِّئةٍ فلم يعمَلْها لم تُكتَبْ شيئًا، فإنْ عَمِلَها كُتِبَت سَيِّئةً واحِدةً. قال: فنَزَلْتُ حتى انتهَيتُ إلى موسى – ﷺ –، فأخبَرْتُه، فقال: ارجِعْ إلى رَبِّك فاسألْه التَّخفيفَ، فقال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: فقُلتُ: قد رَجعْتُ إلى ربِّي حتى استَحْيَيتُ منه)).(13)

مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ.

(13) رواه مسلم (162).

أي: مِن مَسجِدِ مكَّةَ -وهو البَيتُ العَتيقُ-[14] إلى المسجِدِ الأقصى[15] -وهو بيتُ المَقدِسِ- الذي بارَكْنا حَولَه بالأنهارِ والأشجارِ والثِّمارِ، وجعَلْناه مَوضِعًا لكثيرٍ مِن الأنبياءِ والأصْفياءِ.[16]

---

(14) ممَّن اختار أنَّ الإسراءَ برَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان من المسجِدِ نفسِه: ابنُ كثير، والبقاعي، والقاسمي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (5/5)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (289/11)، ((تفسير القاسمي)) (428/6)، ((تفسير ابن عاشور)) (12/15)، ((تفسير ابن جرير)) (420/14).

قال الشوكاني: (مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ قال الحسنُ وقتادةُ: يعني: المسجدَ نفسَه.

وهو ظاهِرُ القُرآنِ).

((تفسير الشوكاني)) (246/3).

وقال ابنُ كثير: (إنَّ الثَّابتَ في «الصَّحيحينِ» مِنْ روايةِ شريكِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ أبي نَمِرٍ عن أنسٍ أنَّ الإسراءَ كانَ مِنَ المسجدِ مِنْ عندِ الحِجْرِ).

((البداية والنهاية)) (275/4).

وقيل: المرادُ بالمسجدِ الحرامِ: الحرمُ كلُّه، والحرمُ كلُّه مسجدٌ؛ وذلك لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أُسرِي به من بيتِ أمِّ هانئٍ، وذلك على قولِ أكثرِ المفسِّرينَ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (8/3).

قال الشنقيطي: (الصحيحُ أن الإسراءَ وَقَع به مِن بيتِ أُمِّ هانئٍ بنتِ أبي طالبٍ في مكةَ في الحرمِ لا في نفسِ المسجدِ).

((العذب النمير)) (405/5).

ويُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (381/3).

وقال ابنُ عثيمين في الجمعِ بينَ حديثِ الإسراءِ مِن الحِجْرِ ومن بيتِ أُمِّ هانئٍ، قال: (وعلى هذا فيكونُ الحديثُ الذي فيه أنَّه أُسرِي به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن بيتِ أُمِّ هانئٍ -إن صحَّت الروايةُ- يُرادُ ابتداءُ الإسراءِ، ونهايتُه مِن الحِجرِ، كأنَّه نُبِّه وهو في بيتِ أمِّ هانئٍ، ثمَّ قام فنام في الحِجرِ فأُسرِي به مِن الحجرِ).

((مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين)) (395/12).

وقال ابنُ حجر في الجمع بين هذين القولينِ وغيرِهما مما ورد في الرِّوايات الأخرى: (والجمعُ بين هذه الأقوالِ: أنَّه نام في بيتِ أمِّ هانئٍ وبيتُها عند شِعبِ أبي طالب ففُرِجَ سَقفُ بيته ...

فنزل منه الملَكُ فأخرجه من البيتِ إلى المسجِدِ، فكان به مضطجعًا وبه أثَرُ النُّعاسِ، ثم أخرجه الملَكُ إلى بابِ المسجِدِ فأركبه البُراقَ).

((فتح الباري)) (204/7).

كما قال تعالى: وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا [الأعراف: 137].

وقال سُبحانَه: وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ [الأنبياء: 71].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا [الأنبياء: 81].

وقال جلَّ جلالُه: وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً [سبأ: 18].

---

(15) قال الرازي: (قَولُه: إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى اتَّفَقوا على أنَّ المرادَ منه بيتُ المَقدِس).
((تفسير الرازي)) (292/20).
وقال الواحدي: (وقيل له: الْأَقْصَى؛ لبُعدِ المسافةِ بينَه وبينَ المسجدِ الحرامِ).
((البسيط)) (248/13).
ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (226/3)، ((تفسير السمعاني)) (214/3).
وقال ابن جزي: (وسمِّي الْأَقْصَى؛ لأنَّه لم يكنْ وراءَه حينئذٍ مسجدٌ).
((تفسير ابن جزي)) (440/1).

(16) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (448/14)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 627)، ((تفسير ابن كثير)) (5/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 453)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (10/3).
قال ابنُ الجوزي: (معنى بَارَكْنَا حَوْلَهُ أنَّ الله أجرى حولَه الأنهارَ، وأنبتَ الثِّمارَ.
وقيل: لأنَّه مَقرُّ الأنبياءِ، ومَهبِطُ الملائكةِ).
((تفسير ابن الجوزي)) (8/3).
وقال السعدي: (قولُه: الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ أي: بكثرةِ الأشجارِ والأنهارِ، والخِصبِ الدَّائمِ، ومِن بركَتِه تفضيلُه على غيرِه من المساجِدِ سوى المسجِدِ الحرامِ ومسجِدِ المدينة، وأنَّه يُطلَبُ شَدُّ الرِّحالِ إليه للعبادة والصَّلاةِ فيه، وأنَّ اللهَ اختصَّه محلًّا لكثيرٍ مِن أنبيائِه وأصفيائِه).
((تفسير السعدي)) (ص: 453).
وقال الشنقيطي: (المرادُ بأنَّه بارَك فيها: أنَّه أكثَر فيها البركةَ والخيرَ بالخصبِ والأشجارِ والثمارِ والمياهِ، كما عليه جمهورُ العلماءِ.
وقال بعضُ العلماءِ: المرادُ بأنَّه بارَك فيها أنَّه بعَث الأنبياءَ منها).
((أضواء البيان)) (10/3).

وعن جابِرِ بنِ عبد اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((لَمَّا كَذَّبَنِي قُرَيشٌ قُمتُ في الحِجرِ، فجلَّى اللهُ لي بيتَ المقدِسِ، فطَفِقْتُ أُخبِرُهم عن آياتِه، وأنا أنظُرُ إليه)).[17]

لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا.

(17) رواه البخاري (4710)، ومسلم (170).

أي: أَسْرَينا بعَبْدِنا مُحَمَّدٍ مِن المَسجِدِ الحرامِ إلى المَسجِدِ الأقصى؛ كي نُرِيَه[18] بعضًا مِن عجائِبِ قُدرتِنا الكُبرى، وأدِلَّتِنا العُظمَى.[19]

---

(18) قال ابن جرير: (الصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندنا أن يقالَ: إنَّ اللهَ أسرى بعَبدِه مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من المسجِدِ الحرامِ إلى المسجِدِ الأقصى، كما أخبَرَ الله عبادَه، وكما تظاهَرَت به الأخبارُ عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أنَّ الله حمَلَه على البُراقِ حين أتاه به، وصلَّى هنالك بمن صلَّى مِن الأنبياءِ والرُّسُل، فأراه ما أراه من الآياتِ.

ولا معنى لِقولِ مَن قال: أَسرى برُوحِه دونَ جَسَدِه؛ لأنَّ ذلك لو كان كذلك لم يكُنْ في ذلك ما يُوجِبُ أن يكون ذلك دليلًا على نبُوَّتِه، ولا حُجَّةَ له على رسالتِه، ولا كان الذين أنكَروا حقيقةَ ذلك من أهلِ الشِّرك، وكانوا يَدفَعونَ به عن صِدقِه فيه؛ إذ لم يكنْ مُنكَرًا عندهم ولا عند أحدٍ مِن ذوي الفِطرةِ الصَّحيحةِ مِن بني آدمَ أن يرى الرَّائي منهم في المنامِ ما على مسيرةِ سَنةٍ، فكيف ما هو على مَسيرةِ شَهرٍ أو أقَلَّ؟! وبعدُ؛ فإنَّ اللهَ إنَّما أخبَرَ في كتابِه أنَّه أسرى بعَبدِه، ولم يُخبِرْنا أنَّه أسرى برُوحِ عَبدِه، وليس جائزًا لأحدٍ أن يتعَدَّى ما قال اللهُ إلى غيرِه).

((تفسير ابن جرير)) (14/446-447).

وقال الشِّنقيطيُّ: (فاعلَمْ أنَّ هذا الإسراءَ به -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- المذكورَ في هذه الآيةِ الكريمةِ، زَعَم بعضُ أهلِ العِلمِ أنَّه برُوحِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دونَ جَسَدِه، زاعمًا أنَّه في المنامِ لا اليَقَظةِ؛ لأنَّ رؤيا الأنبياءِ وَحيٌ، وزعم بعضُهم: أنَّ الإسراءَ بالجسَدِ، والمعراجَ بالرُّوحِ دون الجسَدِ، ولكِنَّ ظاهِرَ القرآنِ يدُلُّ على أنَّه بروحِه وجَسَدِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يقظةً لا منامًا؛ لأنَّه قال بِعَبْدِهِ والعبدُ: عبارةٌ عن مجموعِ الرُّوحِ والجسَدِ، ولأنَّه قال: سُبْحَانَ والتَّسبيحُ إنما يكونُ عند الأمورِ العِظامِ، فلو كان منامًا لم يكُنْ له كبيرُ شأنٍ حتى يُتعَجَّب منه، ويؤيِّدُه قولُه تعالى: مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى [النجم: 17] ؛ لأنَّ البَصَرَ مِن آلاتِ الذَّاتِ لا الرُّوحِ، وقَولُه هنا: لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا).

((أضواء البيان)) (3/3).

وقال القاضي عياض: (الحقُّ، والذى عليه أكثرُ الناسِ ومُعظَمُ السلفِ وعامةُ المتأخرينَ من الفُقَهاء والمحَدِّثين والمتكلِّمين: أنه أسرَى بالجَسَدِ، والآثار تدُلُّ عليه لِمن طالعَها وبحَثَ عنها، ولا يُعدَلُ عن ظاهِرِها إلَّا بدليل، ولا استحالةَ فى حَملِها عليه فيُحتاجَ إلى تأويلٍ).

((إكمال المعلم)) (1/497).

وقال ابن كثير: (الأكثرونَ مِنَ العلماءِ على أنَّه أُسْرِي ببدنِه ورُوحِه يَقَظَةً لا منامًا).

((تفسير ابن كثير)) (5/43).

قال ابنُ عطية (٥/ ٤٣٨): «البركة حوله مِن جهتين: إحداهما: النبوّة، والشرائع، والرسل الذين كانوا في ذلك القطر وفي نواحيه وبواديه.

والأخرى: النِّعم من الأشجار، والمياه، والأرض المفيدة التي خص الله الشام بها.

كما قال تعالى: مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى [النجم: 11 – 18].

إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لجَميعِ المَسموعاتِ، البَصيرُ بكُلِّ المَرئيَّاتِ، ومِن ذلك سَمْعُه لأقوالِ عبادِه؛ مُؤمِنِهم وكافِرِهم، مُصَدِّقِهم ومُكَذِّبِهم، وهو البَصيرُ بهم، فيُجازي كُلًّا بما يستَحِقُّه في الدُّنيا والآخرةِ.[20]

---

وروي عن النبي – ﷺ – أنه قال: «إنّ الله بارك فيما بين العريش والفرات، وخصّ فلسطين بالتقديس»».

(19) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (448/14)، ((تفسير ابن كثير)) (5/5)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (11/3).

وقال الشِّنقيطي: (وذلك ما رآه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعَينِه ليلةَ الإسراءِ، مِن الغرائِبِ والعجائِبِ).

((أضواء البيان)) (11/3).

قال ابنُ عطية (٥/ ٤٣٨): «قوله: ﴿لنريه من آياتنا﴾ يريد: لنري محمدًا بعينه آياتنا في السماوات، والملائكة، والجنة، والسدرة، وغير ذلك مما رآه تلك الليلة من العجائب.

ويحتمل أن يريد: لنري محمدًا – ﷺ – للناس آيةً، أي: يكون النبي – ﷺ – آية في أن يصنع الله لبشر هذا الصنع، وتكون الرؤيةُ على هذا رؤيةَ قلب».

(20) اختُلِف في صفة إسرائه – ﷺ –، أكان بجسده وروحه، أم بروحه فقط؟ على قولين: الأول: أنّ الإسراء كان بجسده وروحه، يقظة لا منامًا.

وهذا قول الجمهور.

واختلف أصحاب هذا القول هل دخل – ﷺ – بيت المقدس، وصلّى فيه أم لا؟ على قولين، الثاني منهما قول حذيفة.

والثاني: أنّ الإسراء كان بروحه فقط، وكانت الرؤيا منامية.

وهذا قول عائشة، ومعاوية، وجوَّزه الحسن، وابن إسحاق.

وعلَّقَ ابنُ كثير (٨/ ٤٠٠ بتصرف) على قول حذيفة، فقال: «هذا الذي قاله حذيفة – رضي الله عنهما – نفي، وما أثبته غيرُه عن رسول الله – ﷺ – مِن ربط الدابة بالحلقة، ومن الصلاة ببيت المقدس، مُقدَّمٌ على قوله».

وعلَّقَ ابنُ عطية (٥/ ٤٣٥ بتصرف) على القول الثاني بقوله: «وركوب البُراق على قول هؤلاء يكون مِن جملة ما رأى في النوم».

## وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (2).

وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ.

أي: وآتينا موسى التَّوراةَ.

---

ثم قال: «واحتُجَّ لقول عائشة بقوله تعالى: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾، وهذا يحتمل القول الآخر؛ لأنه يقال لرؤية العين: رؤيا، واحتُجَّ أيضًا بأن في بعض الأحاديث: «فاستيقظت وأنا في المسجد الحرام».

وهذا يحتمل أن يُرَدَّ من الإسراء إلى نوم.

واعتُرِضَ قول عائشة بأنها كانت صغيرة لم تشاهد، ولا حدَّثت عن النبي - ﷺ -، وأما معاوية فكان كافرًا في ذلك الوقت، غير مشاهد للحال، صغيرًا، ولم يحدِّث عن النبي - ﷺ -».

ورجَّح ابنُ جرير (١٤/ ٤٤٦ - ٤٤٧)، وكذا ابن عطية (٥/ ٤٣٥)، ومثلهما ابنُ كثير (٨/ ٤٣١ - ٤٣٢) قولَ الجمهور استنادًا إلى القرآن، وأقوال السلف، ودلالة العقل، وهو الظاهر مِن كلام ابن تيمية (٤/ ١٩٤).

قال ابنُ عطية: «الصحيح ما ذهب إليه الجمهور، ولو كانت مناميَّة ما أمكن قريشًا أن تُشَنِّع، ولا فُضِّل أبو بكر بالتصديق، ولا قالت له أم هانِئ: لا تحدِّث الناسَ بهذا فيكذبوك.

إلى غير هذا من الدلائل».

وقال ابنُ كثير (٨/ ٤٣١ - ٤٣٢ بتصرف): «الحق أنّه - ﷺ - أُسْرِي به يقظةً لا منامًا، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان منامًا لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مُسْتَعْظَمًا، ولَما بادرت كفارُ قريش إلى تكذيبه، ولَما ارتدَّت جماعةٌ ممَّن كان قد أسلم.

وأيضًا فإنّ العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال تعالى: ﴿أسرى بعبده ليلا﴾، وقال تعالى: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾، قال ابن عباس: هي رؤيا عين أُريها رسول الله - ﷺ - ليلة أسري به.

رواه البخاري.

وقال تعالى: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾، والبصر مِن آلات الذّات، لا الروح.

وأيضًا فإنه حُمِل على البُراق، وهو دابة بيضاء، براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه».

وبنحوهما قال ابنُ جرير.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [القصص: 43].

وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

أي: وجعَلْنا كِتابَ موسى(21) هاديًا لبني إسرائيلَ إلى الحَقِّ.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ [السجدة: 23].

أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا.

أي: ألَّا(22) تتَّخِذوا -يا بني إسرائيلَ- مِن دوني مَعبودًا تعتَمِدونَ عليه، وتَكِلونَ أمورَكم إليه.

---

(21) ذَهَبَ ابنُ جرير (١٤/ ٤٤٩)، وكذا ابنُ كثير (٨/ ٤٣٥) إلى ما ذهب إليه السدي ومقاتل مِن أنّ الضمير في ﴿وجعلناه﴾ يعود على الكتاب، أي: التوراة.

وذكر ابنُ عطية (٥/ ٤٣٨) أنّه يحتمل العود على التوراة، ويحتمل العود على موسى.

(22) قيل: «أن» في ألَّا بمعنى: «أي»، والمعنى: جعلْناه هدًى لبني إسرائيلَ، أي: لا يتَّخِذوا.

وقيل: هو على إضمارِ القولِ، أي: قُلنا لهم: لا تتَّخذوا...

فعلى هذا «أن» زائدةٌ.

ويجوزُ أن يكونَ التقديرُ: جعلناه هدًى بأن لا تتَّخِذوا.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (436/3)، ((تفسير الرسعني)) (123/4)، ((تفسير الرازي)) (298/20).

وذكر الشنقيطي قراءةَ جمهورِ القرَّاءِ تَتَّخِذُوا على وجهِ الخطابِ، وقراءةَ يَتَّخِذُوا بالياءِ على الغيبةِ.

وتوجيهَ ألَّا على كلا القراءتينِ، ثمَّ قال: (فمرجعُ القراءتينِ إلى شيءٍ واحدٍ، وهو أنَّ التوكُّلَ إنما يكونُ على الله وحدَه لا على غيرِه). ((أضواء البيان)) (11/3).

كما قال تعالى: وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا [النساء: 81].

وقال سُبحانه: رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا [المزمل: 9].

ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3).

ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ.

أي: يا سُلالةَ مَن حملْنا مع نوحٍ في السَّفينةِ، فنجَّيناهم مِن الغرَقِ.[23]

كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ [الصافات: 77].

(23) ذَهَبَ ابنُ جرير (١٤/ ٤٤٩)، وكذا ابنُ كثير (٨/ ٤٣٥) إلى ما ذهب إليه مجاهد ويحيى بن ســـلام مِن أنّ ﴿ذرّيّة﴾ منصوبة على النداء.

وقال ابنُ عطية (٥/ ٤٣٩): «وذلك متَّجِه إما على المفعول بـ ﴿يتخذوا﴾، ويكون المعنى: ألّا تتخذوا بشرًا إلهًا من دون الله.

وإما على النداء، أي: يا ذرية، فهذه مخاطبة للعالَم.

قال قوم: وهذا لا يتجه إلا على قراءة مَن قرأ (تَتَّخِذُوا) بالتاء من فوق، ولا يجوز على قراءة مَن قرأ ﴿يتخذوا﴾ بالياء؛ لأن الفعل لغائب والنداء لمخاطب، والخروج من الغيبة إلى الخطاب إنما يستسهل مع دلالة الكلام على المراد، وفي النداء لا دلالة إلا على غاية التكلّف، وإما على النصب بإضمار: أعني، وإما على البدل من قوله: ﴿وكيلا﴾، وهذا أيضًا فيه تكلّف».

إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا.

أي: إنَّ نوحًا كان عبدًا للهِ شكورًا لنِعَمِه؛ فتشبَّهوا بأبيكم، واشكُروني على نِعَمي عليكم، ولا تُشرِكوا بي شيئًا.[24]

(24) قال القرطبي: (مقصودُ الآية: إنّكم من ذريَّةِ نُوحٍ، وقد كان عبدًا شَكورًا؛ فأنتم أحَقُّ بالاقتداءِ به دون آبائِكم الجُهَّالِ).
((تفسير القرطبي)) (213/10).

# سورةُ الإسراءِ

## الآيات (4-8)

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4) فَإِذَا
جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا
مَفْعُولًا (5) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6)
إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ
وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (7) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ
يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (8)

## غريب الكلمات:

وَقَضَيْنَا: أي: أخبَرْنا وأعلَمْنا، فهذا قضاءٌ بالإعلامِ والفصلِ في الحكمِ، والقضاءُ: فَصْلُ الأمْرِ؛ قولًا كان ذلِك أو فِعلًا، وأصلُ (قضي): يَدُلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِه، وإنفاذِه لجِهتِه.

فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ: أي: طافُوا بينَ الدِّيارِ يَطلُبونكم ويَقتُلونكم ذاهِبينَ وجائِينَ، ومنه: الجَوسُ: وهو التَّردُّد خِلالَ الدُّورِ والبُيوتِ بالفَسادِ في الغارةِ ونحوِها، وأصلُ (جوس): يَدُلُّ على تَخَلُّلِ الشَّيءِ، وأصلُ الخلالِ: مِن الخَلَلِ: وهو الفُرجةُ بينَ الشيئَينِ.

الْكَرَّةَ: الرَّجْعةَ والدَّوْلةَ، وأصلُ (كرر): يدُلُّ على العَطفِ والرُّجوعِ.

نَفِيرًا: أي: عَددًا، وأصلُه مَن يَنفِرُ مع الرَّجُلِ مِنْ عَشيرتِه وأهلِ بَيتِه، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على الانزِعاجِ والفَزَعِ إلى الشَّيءِ.

لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ: أي: لِيَجعَلوا آثارَ المَساءةِ مِن غَمٍّ وحُزنٍ باديةً على وجوهِكم، يقال: ساءه يَسوؤُه، أي: غَمَّه وأحزَنَه.

وَلِيُتَبِّرُوا: أي: لِيُدَمِّروا ويُخَرِّبوا، وأصلُ (تبر): يدُلُّ على هَلاكٍ.

مَا عَلَوْا: أي: ما غَلَبوا عليه مِن الأقطارِ، ومَلَكوه مِن البِلادِ، وأصلُ العُلُوِّ هنا: يدُلُّ على الاستِيلاءِ والغَلَبِ.

حَصِيرًا: أي: محبِسًا وسِجنًا، مِن حَصَرْتُه، أي: حبسْتُه. أو: بساطًا ومهادًا، مِن الحصيرِ، أي: البِساطِ الصَّغيرِ، وأصلُ (حصر): يدلُّ على حَبسٍ ومَنعٍ.

## تفسير الآيات:

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4).

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ.

أي: وأعلَمْنا بني إسرائيلَ في التَّوراةِ[25] -بما سبَقَ في عِلْمِنا- أنَّهم سيُفسِدونَ في الأرضِ مَرَّتَين؛ بالكُفرِ والمعاصي، ومُخالَفةِ أحكامِ التَّوراةِ.[26]

---

(25) وممَّن ذهب إلى هذا المعنى لـ قَضَيْنَا والْكِتَابِ: ابنُ جريرٍ، والواحدي، وابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (14/454)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 628)، ((تفسير ابن كثير)) (5/47)، ((تفسير السعدي)) (ص: 453)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (3/14).

وممن قال بهذا القولِ في معنى قَضَيْنَا مِن السلفِ: ابنُ عباس في روايةٍ عنه، وابنُ زيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (14/455).

قال ابن جزي: (وقيل: قَضَينا إليه من القضاءِ والقَدَر، والكتابُ على هذا: اللَّوحُ المحفوظُ الذي كُتِبَت فيه مقاديرُ الأشياءِ، وإلى بمعنى على لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ هذه الجملةُ بيانٌ للمَقضيِّ).

((تفسير ابن جزي)) (1/441).

وممن اختار هذا القولَ: القاسمي.

يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (6/441- 442).

وممن قال مِن السلفِ بنحوِ هذا القولِ في قَضَيْنَا: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وقتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (14/455)، ((تفسير الماوردي)) (3/228)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/10).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (تلخيصُ المعنى عندي أنَّ هذا الأمرَ هو مِمَّا قضاه اللهُ تعالى في أمِّ الكِتابِ على بني إسرائيلَ، وألزَمَهم إيَّاه، ثمَّ أخبَرَهم به في التَّوراةِ على لسانِ موسى، فلمَّا أراد هنا الإعلامَ لنا بالأمرينِ جميعًا في إيجازٍ، جعَلَ (قَضَينا) دالَّةً على النُّفوذِ في أمِّ الكتاب، وقرَنَ بها [إلى] دالَّةً على إنزالِ الخبرِ بذلك إلى بني إسرائيلَ، والمعنى المقصودُ مَفهومٌ خِلالَ هذه الألفاظِ؛ ولهذا فسَّرَ ابنُ عبَّاسٍ مَرَّةً بأن قال: قَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ معناه: أعلَمْناهم، وقال مَرَّةً: معناه: قَضَينا عليهم).

((تفسير ابن عطية)) (3/437).

(26) وقيل: المرادُ بالأرضِ هنا: أرضُ الشَّامِ، وبيتُ المقدِس.

وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا.

أي: وأعلمناهم أيضًا أنَّهم سَيَستكبِرونَ على اللهِ بمُخالفةِ أمرِه، والتَّجَبُّرِ على عبادِه، استكبارًا وطُغيانًا شَديدًا.[27]

---

وممَّن ذهب إلى ذلك: القرطبي، والخازن، والعليمي، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (10/214)، ((تفسير الخازن)) (3/117)، ((تفسير العليمي)) (4/79)، ((تفسير الشوكاني)) (3/249).

وقيل: هي أرضُ مِصرَ.

وممَّن قال بذلك: الواحدي، وابنُ الجوزي، والرازي، والرسعني.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (3/97)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/10)، ((تفسير الرازي)) (20/299)، ((تفسير الرسعني)) (4/125).

قال ابنُ تيمية: (كانت الأولى بعد سُليمانَ، وكانت الثَّانيةُ بعد زكريَّا ويحيى والمسيحِ، لَمَّا قتلوا يحيى بن زكريَّا الذي يسمِّيه أهلُ الكِتابِ يوحنَّا المَعمداني.

وكثيرٌ مِن المذكورين بالعِلمِ يظُنُّ أنَّ بُختنَصَّر هو الذي قَدِمَ الشَّامَ لَمَّا قتل يحيى بن زكريا، وهذا عند أهلِ العِلمِ من أهلِ الكتابِ وعندَ مَن له خبرةٌ مِن عُلَماءِ المُسلِمين: باطِلٌ.

والمتواتِرُ أنَّ بختنصَّر هو الذي قَدِمَ في المرَّةِ الأولى).

((الجواب الصحيح)) (6/338).

وممن قال مِن السلفِ أنَّ أولَ الفسادينِ كان قتلَ زكريَّا: ابنُ مسعودٍ، وابنُ عباسٍ، وابنُ زيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (14/456)، ((تفسير الماوردي)) (3/229).

وقال الماوردي: (أمَّا المقتولُ مِن الأنبياءِ في الفَسادِ الثَّاني فيحيى بنُ زكريَّا في قَولِ الجميعِ).

((تفسير الماوردي)) (3/229).

(27) وقال ابنُ كثير (٨/ ٤٣٨ – ٤٣٩): «وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية، لم أرَ تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع مِن وضع زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحًا، ونحن في غنية عنها –ولله الحمد–، وفيما قصَّ الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم.

وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم، وأذلهم وقهرهم جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقًا مِن الأنبياء والعلماء».

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (5).

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ.

أي: فإذا حان وَقتُ عُقوبتِكم –يا بَني إسرائيلَ– على أُولى المَرَّتَينِ اللَّتَينِ تُفسِدونَ فيهما في الأرضِ؛ سَلَّطنا عليكم جُنْدًا مِن خَلْقِنا، أصحابَ بَطشٍ وقُوَّةٍ شَديدةٍ.[28]

---

(28) قال السعدي: (اختلف المُفَسِّرونَ في تَعيينِ هؤلاء المُسَلَّطينَ، إلَّا أنَّهم اتَّفَقوا على أنَّهم قَومٌ كُفَّارٌ).

((تفسير السعدي)) (ص: 454).

وقال ابنُ تيمية: (بيتُ المَقدِسِ خُرِّبَ مَرَّتين؛ فالخرابُ الأوَّلُ: لَمَّا جاء بُختنَصَّر وسَباهم إلى بابل وبَقِيَ خرابًا سبعين سنة، والخرابُ الثاني: بعد المسيحِ بنَحوِ سَبعينَ سَنةً...

فبعد الخَرابِ الثَّاني تفَرَّقوا في الأرض ولم يَبقَ لهم مُلكٌ).

((الجواب الصحيح)) (5/94، 95).

وقال ابن عاشـــور: (هذه الآيةُ تُشـــيرُ إلى حوادثَ عظيمةٍ بينَ بني إســـرائيلَ وأعدائِهم مِن أُمَّتينِ عظيمتينِ: حوادث بينَهم وبينَ البابليِّينَ، وحوادث بينهم وبينَ الرُّومانيِّينَ...

فالمرَّةُ الأُولَى هي مجموعُ حوادثَ متسلسلةٍ، تُسمَّى في التاريخِ بــــ «الأسر البابلي»، وهي غزواتُ بُختنَصَّر –ملكِ بابلَ وآشورَ– بلادَ أورشليمَ.

والغزوُ الأوَّلُ كان سنة «606» قبلَ المسيحِ، أسَر جماعاتٍ كثيرةً مِن اليهودِ، ويُسمَّى «الأسر الأول».

ثم غزاهم أيضًا غزوًا يُسمَّى «الأسر الثاني»، وهو أعظمُ مِن الأوَّلِ، كان سنة «598» قبلَ المسيحِ، وأسَر ملكَ يهوذا وجمعًا غفيرًا مِن الإسرائيليينَ، وأخَذ الذهبَ الذي في هيكلِ سليمانَ وما فيه مِن الآنيةِ النفيسةِ.

والأسرُ الثالثُ المبير سنة «588» قبلَ المسيحِ، غزاهم بُختنَصَّر، وسبى كلَّ شعبِ يهوذا، وأحرَق هيكلَ سليمانَ، وبقِيت أورشليمُ خرابًا يبابًا...

وأما المرة الثانيةُ فهي سلسلةُ غزواتِ الرومانيينَ بلادَ أورشليمَ).

((تفسير ابن عاشور)) (15/29، 30).

وقال ابن كثير: (وقد اختلف المفسِّرون من السَّلَفِ والخلَفِ في هؤلاء المسلَّطين عليهم: مَن هم؟...

فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ.

أي: فطاف الجُنودُ الذين سَلَّطَهم اللهُ على بني إسرائيلَ بينَ دُورِهم يتَرَدَّدون بينها جَيْئةً وذَهابًا لِقَتلِهم.

وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا.

أي: وكان تَسليطُ اللهِ أولئك الجُنودَ على بني إسرائيلَ قَضاءً كائِنًا لا بُدَّ مِن وُقوعِه.

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6).

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ.

---

وقد وردت في هذا آثارٌ كثيرة إسرائيلية...

منها ما هو موضوع مِن وضعِ بعضِ زنادقتِهم، ومنها ما قد يحتمِلُ أن يكونَ صحيحًا، ونحن في غنيةٍ عنها، ولله الحمد.

وفيما قصَّ الله تعالى علينا في كتابه غنيةٌ عما سواه من بقية الكتبِ قبله، ولم يحوِجْنا اللهُ ولا رسوله إليهم.

وقد أخبر الله تعالى أنَّهم لَمَّا بَغَوا وطغَوا سلَّط الله عليهم عدوَّهم، فاستباح بيضتَهم، وسلك خلال بيوتِهم وأذلَّهم وقهرهم؛ جزاءً وِفاقًا، وما ربُّك بظلامٍ للعبيد؛ فإنَّهم كانوا قد تمرَّدوا وقتلوا خلقًا من الأنبياء والعلماء).

((تفسير ابن كثير)) (5/47).

وقال الرازي: (اعلَمْ أنَّه لا يتعلَّقُ كثيرُ غَرَضٍ في معرفةِ أولئك الأقوامِ بأعيانهم، بل المقصودُ هو أنَّهم لَمَّا أكثَروا من المعاصي، سَلَّط عليهم أقوامًا قَتَلوهم وأفنَوْهم...

والله أعلَمُ بأحوالِهم، ولا يتعَلَّقُ غَرَضٌ مِن أغراضِ تَفسيرِ القُرآنِ بمَعرفةِ أعيانِ هؤلاءِ الأقوامِ).

((تفسير الرازي)) (20/300، 302).

أي: ثمَّ أرْجَعْنا لكم –يا بني إسرائيلَ– الغَلَبَةَ والنَّصرَ على أعدائِكم الذينَ غَلَبوكم وقَهَروكم، لَمَّا تُبتُم مِن الفسَادِ والطُّغيانِ والاستِكْبارِ، وأطعتُم.

وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ.

أي: وأعْطَيناكم –يا بني إسرائيلَ– الأموالَ والبَنينَ بزيادةٍ وكَثرةٍ.

وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا.

أي: وصيَّرناكم أكثَرَ جُندًا مِن عَدُوِّكم.

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (7).

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ.

أي: إنْ أطَعْتُم اللهَ –يا بني إسرائيلَ– فإحسانُكم هذا عائِدٌ إليكم، وبه تَنفعونَ أنفُسَكم، فيَزيدُكم اللهُ مِن الرِّزقِ والقُوَّةِ، ويُدافِعُ عنكم، ويُدخِلُكم الجَنَّةَ.

كما قال تعالى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ [المائدة: 65 –66].

وقال سُبحانه: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ [الأعراف: 96].

وقال عزَّ وجلَّ: وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ [هود: 3].

وقال سُبحانه: اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا [نوح: 10-12].

وقال تعالى: وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا [الجن: 16].

وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا.

أي: وإنْ عَصَيتُم اللهَ فعلى أنفُسِكم ضَرَرُ إساءتِكم، فيُسَلِّطُ اللهُ عليكم في الدُّنيا أعداءَكم، ويُعَذِّبُكم في الآخرةِ.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ [يونس: 23].

وقال سُبحانَه: وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى [طه: 124].

وقال عزَّ وجلَّ: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [فصلت: 46].

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ.

أي: فإذا حانَ وَقتُ عُقوبتِكم –يا بني إسرائيلَ– جرَّاءَ إفسادِكم في المَرَّةِ الثَّانيةِ، سَلَّطْنا عليكم عبادًا لنا؛ لِيَجعَلُوا آثارَ الحُزنِ والكآبةِ بادِيةً في وُجوهِكم، وذلك بقَتلِكم وسَبْيِكم وقَهْرِكم وإذلالِكم.

وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

أي: وَلِيَدخُلوا مَسجِدَ بَيتِ المَقدِسِ فيُخَرِّبوه قَهرًا وغَلَبةً وإذلالًا لكم، كما دخَلوه في المَرَّةِ الأولى حينَ عاقَبْناكم على إفسادِكم الأوَّلِ، فدَخَلوا المسجِدَ بالغَلَبةِ وخرَّبوه، وجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ يَقتُلونَكم.

وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا.

أي: ولِيُدَمِّروا كُلَّ ما غلَبوا وظَهَروا عليه مِن بِلادِكم تَدميرًا، فيُخَرِّبوا بَيتَ المَقدِسِ وبُيوتَكم ومَزارِعَكم.

عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (8).

عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ.

أي: لعلَّ اللهَ –يا بني إسرائيلَ– يرحَمُكم بعدَ انتقامِه منكم، فيُنقِذُكم، ويُعِزُّكم بعدَ ذُلِّكم، ويَجعَلُ لكم قُوَّةً، ويردُّ الدولةَ إليكم.(29)

---

(29) قال ابنُ جرير: (و«عسى» مِن الله: واجِبٌ).

وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا.

أي: وإن رجَعْتُم إلى الإفسادِ في الأرضِ بمَعصيتي بعد رَحمتي لكم، رجَعْتُ إلى انتِقامي منكم، فسلَّطتُ عليكم مرَّةً أخرى مَن يقتُلُكم ويُذِلُّكم.(30)

---

وفعَلَ اللهُ ذلك بهم، فكَثَّرَ عَدَدَهم بعدَ ذلك، ورفَعَ خَساسَتَهم، وجعل منهم المُلوكَ والأنبياءَ).

((تفسير ابن جرير)) (505/14).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (223/10)، ((تفسير السعدي)) (ص: 454).

وقال ابنُ عطية: (و«عسى» تَرَجٍّ في حَقِّهم، وهذه العِدَةُ ليست برُجوعِ دَولةٍ، وإنَّما هي بأنْ يَرحَمَ المُطيعَ منهم، وكان مِن الطاعةِ اتِّباعُهم لعيسى ومُحمَّدٍ، فلم يفعلوا وعادوا إلى الكُفرِ والمَعصيةِ، فعاد عِقابُ اللهِ، فضَرَبَ عليهم الذُّلَّ، وقتَلَهم وأذَلَّهم بيَدِ كُلِّ أمَّةٍ).

((تفسير ابن عطية)) (440/3).

قال القاسمي: (قوله: عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ أي: إذا أخلصتُم للإنابةِ، وأحسنتُم الأعمالَ، وأقمتُم الكتابَ وما نزَل إليكم؛ لأنَّكم علمتُم مِن سنتِه تعالى أنَّه لا يُنزِلُ بلاءً إلا بذنبٍ، ولا يرفعُه إلا بتوبةٍ، ولذا قال: وَإِنْ عُدْتُمْ أي: بعدَ هذه التوبةِ والإنابةِ إلى الاستكبارِ عُدْنَا أي: إلى تسليطِ الأعداءِ، وسلبِ الأموالِ والأولادِ في الدنيا).

((تفسير القاسمي)) (443/6).

(30) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (505/14)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 629)، ((تفسير البيضاوي)) (249/3)، ((تفسير ابن كثير)) (48/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 454).

قال ابن جُزَيٍّ: (قد عادُوا فبعَثَ الله عليهم محمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأمَّتَه يَقتُلونَهم ويُذِلُّونَهم إلى يومِ القيامةِ).

((تفسير ابن جزي)) (442/1).

وممَّن قال بأنَّهم قد عادوا للفسادِ فسلَّط الله تعالى عليهم محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم: البيضاوي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (249/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 454).

قال الشنقيطي: (ولم يبيِّنْ هنا: هل عادوا للإفسادِ المرةَ الثالثة أو لا، ولكنَّه أشار في آياتٍ أخرَ إلى أنَّهم عادوا للإفساد بتكذيب الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكتْمِ صفاتِه ونقضِ عهودِه، ومظاهرةِ عدوِّه عليه، إلى غير ذلك من أفعالهم القبيحة.

فعاد اللهُ جل وعلا للانتقام منهم؛ تصديقًا لقوله: وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا فسلَّط عليهم نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمين، فجرى على بني قريظةَ والنضيرِ وبني قَينقاعَ وخيبر ما جرى من القَتلِ والسبيِ والإجلاء، وضَرْب الجزية على من بقي منهم، وضَرْب الذِّلَّة والمسكنة.

كما قال سُبحانَه: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ [الأعراف: 167].

وقال عزَّ وجلَّ: وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا [الأحزاب: 26-27].

وقال تبارك وتعالى: هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ [الحشر: 2].

---

فمن الآيات الدالة على أنهم عادوا للإفسادِ قولُه تعالى: وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ [البقرة: 89، 90]، وقوله: أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ...

[البقرة: 100]، وقوله: وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ [المائدة: 13] ، ونحو ذلك من الآيات.

ومن الآياتِ الدالَّةِ على أنه تعالى عاد للانتقامِ منهم قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [الحشر: 2، 4]، وقوله تعالى: وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا [الأحزاب: 26، 27]، ونحو ذلك من الآيات.

((أضواء البيان)) (3/15-16).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِي الله عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم قال: ((تُقاتِلُكم اليَهودُ، فتُسَلَّطونَ عليهم، حتى يقولَ الحَجَرُ: يا مُسلِمُ، هذا يَهوديٌّ ورائي فاقتُلْه)).[31]

وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا.

أي: وجَعَلْنا جهنَّمَ للكافرينَ سِجنًا ومحبِسًا، لا يَستَطيعونَ الخُروجَ منها أبدًا.[32]

كما قال تعالى: وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا [الفرقان: 13].

---

(31) رواه البخاري (3593)، ومسلم (2921) واللفظ له.

(32) قال الواحدي: (قوله تعالى: وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا قال ابنُ عباسٍ والمفسرونَ كلُّهم: سِجنًا ومحبِسًا).

((البسيط)) (267/13).

وقال الشنقيطي: (في قَولِه: حَصِيرًا في هذه الآيةِ الكريمةِ وجهانِ من التفسيرِ معروفان عند العلماء، كلٌّ منهما يشهد لمعناه قرآن...

الأولُ: أن الحصير: المحبِسُ والسِّجنُ، من الحَصرِ وهو الحبس...

وهذا الوجه يدُلُّ له قوله تعالى: وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا [الفرقان: 13] ، ونحو ذلك من الآيات.

الوجه الثاني: أنَّ معنى حصيرًا: فراشٌ ومِهادٌ، من الحصيرِ الذي يُفرَشُ؛ لأنَّ العرب تسمِّي البساطَ الصغير حصيرًا.

قال الثعلبي: وهو وجهٌ حسن.

ويدُلُّ لهذا الوجه قولُه تعالى: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ [الأعراف: 41] ، ونحو ذلك من الآيات.

والمهاد: الفراش).

((أضواء البيان)) (16/3).

ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (86/6).

وممن قال بالقولِ الثاني: الحسنُ البصري، واختاره ابنُ جرير، فقال: (والصوابُ من القول في ذلك عندي أن يقال: معنى ذلك: وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا فراشًا ومِهادًا لا يزايلُه، من الحصيرِ الذي بمعنى البِساطِ؛ لأنَّ ذلك إذا كان كذلك كان جامعًا معنى الحبسِ والامتهاد، مع أنَّ الحصير بمعنى البساطِ في كلامِ العربِ أشهَرُ منه بمعنى الحبسِ...

فلذلك قلتُ: قول الحسن أولى بالصوابِ في ذلك).

((تفسير ابن جرير)) (510/14).

وقال عزَّ وجَلَّ: إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا

[الأحزاب: 64– 65].

# سورةُ الإسراءِ

## الآيات (9-11)

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (10) وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (11)

## تفسير الآيات:

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِايَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9).

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ.

أي: إنَّ هذا القُرآنَ يُرشِدُ المتَّبِعينَ له إلى الطَّريقةِ التي هي أعدَلُ وأفضَلُ وأصوَبُ في كلِّ شأنٍ؛ من العقائِدِ والأعمالِ والأخلاقِ، وهي ملةُ الإسلامِ.[33]

وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا.

---

(33) قال ابن جرير (وذلك دينُ الله الذي بعَث به أنبياءه، وهو الإسلامُ).

((تفسير ابن جرير)) (510/14).

قال الشـنقيطي: (هذه الآيةُ الكريمةُ أجمل الله جل وعلا فيها جميعَ ما في القرآنِ من الهدى إلى خيرِ الطُّرُقِ وأعدَلِها وأصـوَبِها، فلو تتبَّعْنا تفصـيلَها على وجهِ الكمال لأتينا على جميعِ القرآن العظيمِ؛ لشـمولها لجميعِ ما فيه من الهدى إلى خيرَيِ الدنيا والآخرة).

((أضواء البيان)) (17/3).

قال الألوسي: (وأَقْوَمُ أفعَلُ تفضيل على ما أشار إليه غيرُ واحد.

وقال أبو حيان: الذي يظهَرُ من حيث المعنى أنَّه لا يراد به التفضيلُ؛ إذ لا مشـاركة بين الطريقةِ التي يهدي لها القرآنُ وغيرِها من الطرُقِ في مبدأ الاشـتقاقِ لتفضُـلَ عليه، فالمعنى: للتي هي قيِّمةٌ، أي: مسـتقيمة، كما قال الله تعالى: فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ [البينة: 3]، وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ [البينة: 5] اهـ.

وإلى ذلك ذهب الإمام الرازي).

((تفسير الألوسي)) (22/8).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (303/20)، ((تفسير أبي حيان)) (18/7).

أي: ويُبَشِّرُ هذا القرآنُ المُؤمنينَ –الذين يُصَدِّقون إيمانَهم بأنَّهم يَعمَلون الأعمالَ الصَّالحةَ– بأنَّ لهم ثوابًا عظيمًا في الآخِرةِ.

وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (10).

أي: ويُبَشِّرُ القُرآنُ المُؤمِنينَ أيضًا بأنَّ الله أعدَّ وهيَّأَ لأعدائِهم الكافِرينَ الذين لا يُؤمنونَ بالبَعثِ يومَ القيامةِ، عَذابًا مُوجِعًا في الآخِرةِ.

وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (11).

وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ.

أي: ويدعُو الإنسانُ في حالِ غَضَبِه على نَفسِه وأهْلِه ووَلَدِه بالموتِ أو بغَيرِه مِمَّا يَسوءُ، كما يدعو ربَّه بالخَيرِ، فلو استُجيبَ له في دُعائِه بالشَّرِّ كما يُستَجابُ له في الخَيرِ، لهلَك.

عن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((سِرْنا مع رَسولِ اللهِ – ﷺ – في غزوةِ بطنِ بُواطٍ، وهو يَطلُبُ المَجْديَّ بنَ عَمرٍو الجُهَنيَّ، وكان النَّاضِحُ[34] يَعقُبُه[35] مِنَّا الخَمسةُ والسِّتَّةُ والسَّبعةُ، فدارت

(34) النَّاضِحُ: هو البَعيرُ الذي يُستقَى عليه.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (138/18).
(35) يَعقُبُه: أي: يتعاقَبونَه في الرُّكوبِ واحِدًا بعدَ واحدٍ.
يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (401/3).

عُقبةُ[36] رجُلٍ مِن الأنصارِ على ناضِحٍ له، فأناخه فركِبَه، ثمَّ بعَثَه فتَلَدَّنَ[37] عليه بعضَ التلَدُّنِ، فقال له: شأْ،[38] لعَنَك اللهُ. فقال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: مَن هذا اللَّاعِنُ بَعيرَه؟! قال: أنا يا رسولَ اللهِ، قال: انزِلْ عنه، فلا تصْحَبْنا بملعونٍ، لا تدْعُوا على أنفُسِكم، ولا تَدعُوا على أولادِكم، ولا تَدْعوا على أموالِكم، لا تُوافِقوا مِنَ اللهِ ساعةً يُسألُ فيها عَطاءً، فيَستجيبَ لكم)).[39]

وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا.

أي: إنَّما يَفعَلُ الإنسانُ ذلك فيَدعو عندَ غَضَبِه بما يَكرَهُ أن يُستَجابَ له فيه؛ لأنَّ مِن طَبْعِه العَجَلةَ، فيتعَجَّلُ طَلَبَ كُلِّ ما يقَعُ في قَلبِه ويَخطُرُ ببالِه، مِن غيرِ أن يتأنَّى فيه ويتفكَّرَ، ويتدبَّرَ عواقِبَه.

كما قال تعالى: خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ [الأنبياء: 37].

---

(36) العُقْبةُ: رُكوبُ هذا نَوبةً، وهذا نَوبةً.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (138/18).
(37) فتَلَدَّنَ: أي: تلكَّأَ وتوقَّفَ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (138/18).
(38) شَأْ: كَلِمةُ زَجرٍ للبَعيرِ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (138/18).
(39) رواه مسلم (3009).

## سورةُ الإسراءِ

### الآيات (12–15)

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ
رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (12) وَكُلَّ إِنْسَانٍ
أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى
بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (15)

## غريب الكلمات:

مَنْشُورًا: أي: مفتوحًا، والنشرُ: البسطُ، وأصلُ (نشر): يدلُّ على فتحِ شيءٍ وتَشَعُّبِه.

طَائِرَهُ: أي: عَمَلَه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وما قُدِّرَ عليه، تقولُ العربُ: جرَى طائرُه بكذا مِن الخيرِ، وجرَى له الطائرُ بكذا مِن الشَّرِّ، فخُوطبوا بما يَستعمِلونَ، والطائرُ: الحظُّ.

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ: أي: ولا تحمِلُ آثمةٌ إِثْمَ أُخرى غيرِها، والوِزْرُ هو الإثمُ والذَّنْبُ، والثِّقْلُ والحِملُ أيضًا. وقيل: الوِزْرُ: هو الحِمْلُ الثَّقيلُ مِن الإثمِ، وهو الإثمُ العَظيمُ، وأصلُ (وزر): يدلُّ على مَا حَمَلَه الإنسانُ، وعلى الثِّقل في الشَّيء؛ ومنه سُمِّي الإثمُ وزرًا؛ لأنَّه يُثقِلُ ظهرَ مَن يَحمِلُه.

## تفسير الآيات:

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (12).

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ.

أي: وجعَلْنا بعظَمتِنا الباهرةِ اللَّيلَ والنَّهارَ علامَتَينِ دالَّتَينِ على وُجودِ اللهِ ووحدانيَّتِه، وكمالِ قُدرتِه ورَحمتِه بعبادِه، وأنَّه المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له.(40)

كما قال تعالى: وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [يس: 37 – 40].

وقال سُبحانَه: وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ [فصلت: 37].

فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً.

---

(40) قال القرطبي: (والآيةُ فيهما: إقبالُ كُلٍّ منهما مِن حَيثُ لا يُعلَمُ، وإدبارُه إلى حيث لا يُعلَمُ.
ونُقصانُ أحدِهما بزيادةِ الآخَرِ وبالعكس آيةٌ أيضًا.
وكذلك ضَوءُ النَّهارِ، وظُلمةُ اللَّيلِ).
((تفسير القرطبي)) (227/10).
ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (447/6).

أي: فطَمَسْنا القَمَرَ؛ لِيَكونَ اللَّيلُ مُظلِمًا، وجعَلْنا الشَّمسَ مُضيئةً لكم في النَّهارِ.(41)

---

(41) والمرادُ بآيةِ الليلِ: القمرُ، وبآيةِ النهارِ: الشمسُ.

وهو قولُ مقاتلِ بنِ سليمانَ، وظاهرُ قولِ ابنِ جريرٍ، والزجاجِ، والرازي، والقرطبي، وابنِ تيميةَ، وابنِ القيمِ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (524/2)، ((تفسير ابن جرير)) (515/14)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (230/3)، ((تفسير الرازي)) (306/20)، ((تفسير القرطبي)) (227/10)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (506/17)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (217/2).

قال ابن كثير: (ثمَّ إنه تعالى جعل للَّيلِ آيةً، أي: علامةً يُعرَفُ بها، وهي الظلامُ وظهورُ القمَرِ فيه، وللنَّهار علامةً، وهي النورُ وظهورُ الشمس النيِّرة فيه، وفاوَتَ بين ضياء القمر وبرهانِ الشَّمسِ؛ ليُعرَفَ هذا من هذا).

((تفسير ابن كثير)) (50/5).

واختُلِف في معنى محوِ القمر، فقيل: المراد به: الكَلَف الذي يظهَرُ في وجهه، على اعتبارِ أن الشمس والقمر كانا سواءً في النور ثم طُمِسَ الضوء عن القمر.

وممن قال بذلك: علي بن أبي طالب، وابن عباس، ومجاهد.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (515/14-517).

وقيل: المراد: أنه جُعل مظلمًا في نفسِه، مطموسَ النورِ، أي: لم يُجعل في القمرِ -منذُ أولِ خلقِه- شعاعٌ كشعاعِ الشمسِ تُرى به الأشياء رؤيةً بينةً، فنقصُ نورِ القمرِ عن نورِ الشمسِ هو معنَى الطمسِ على هذا القولِ.

وهذا ما استظهره ابنُ عطيةَ، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (442/3)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (57/3).

قال ابن عطية: (وقالت فرقة، وهو الظاهر: إنَّ قولَه: فَمَحَوْنَا إنما يريدُ في أصلِ خلقتِه، وهذا كما تقولُ: بنيت داري فبدأت بالأُسِّ، ثم تابعتُ، فلا تريدُ بالفاء التعقيب).

((تفسير ابن عطية)) (442/3).

وقيل: المرادُ منه: ما يظهرُ في القمرِ مِن الزيادةِ والنقصانِ في النورِ، فيبدو في أولِ الأمرِ في صورةِ الهلالِ، ثمَّ لا يزالُ يتزايدُ نورُه حتى يصيرَ بدرًا كاملًا، ثم يأخذُ في الانتقاصِ قليلًا قليلًا، وذلك هو المحوُ، إلى أن يعودَ إلى المحاقِ.

ومال إليه الرازي.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (306/20).

والوجهُ الثاني في معنى آيةِ الليلِ وآيةِ النهارِ: أنَّ المرادَ بالآيتينِ نفسُ اللَّيلِ والنَّهارِ، لا الشَّمسُ والقمرُ، فتكون إضافة الآيةِ إلى اللَّيلِ والنَّهارِ مِنْ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفسِه معَ اختلافِ اللَّفظِ، أي: الآية التي هي الليلُ، والآية التي هي النهارُ، ومحوُ آيةِ الليلِ على هذا كونُه مظلمًا.

يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (442/1)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (58/3).

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا [يونس: 5].

لِتَبْتَغوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُم.

أي: جَعَلْنا آيةَ النَّهارِ مُبصِرةً؛ لتتَوصَّلوا بضِياءِ النَّهارِ إلى طَلَبِ الرِّزقِ الذي يُيَسِّرُه لكم رَبُّكم مِنْ فَضلِه الواسِعِ.[42]

كما قال تعالى: وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [القصص: 73].

وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ.

أي: ومَحَوْنا آيةَ اللَّيلِ؛ لِتَعلَموا عددَ السَّنَواتِ، وتعلَموا حِسابَ اللَّيالي والشُّهورِ، فتنتَفِعوا بذلك في أمورِ دِينِكم ودُنياكم.[43]

---

(42) وممن قال مِن المفسرينَ: إنَّ قولَه تعالى: لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ عائدٌ إلى آيةِ النهارِ المبصرةِ، أي: لتبتغوا في النهارِ: ابنُ جريرٍ، والسمرقنديِ، والواحدي، والسمعاني، والقرطبي، وابن جزي، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني.

قال الشوكاني: (ولم يذكُرْ هنا السُّكونَ في اللَّيلِ اكتفاءً بما قاله في موضعٍ آخرَ: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا [يونس: 67] ).

((تفسير الشوكاني)) (253/3).

(43) وممَّن قال بأنَّ قوله تعالى: وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ عائدٌ إلى محوِ آيةِ الليل لا آيةِ النهارِ: الواحدي، وابنُ الجوزي، وابنُ عطية.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 629)، ((الوسيط)) للواحدي (99/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (13/3)، ((تفسير ابن عطية)) (442/3).

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [يونس: 5].

وقال سُبحانَه: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ [البقرة: 189].

وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا.

أي: وكلَّ شَيءٍ تَحتاجونَ -أيُّها النَّاسُ- إلى بيانِه مِن مَصالِحِ دِينِكم ودُنياكم بيَّنَّاه لكم في القُرآنِ بَيانًا واضِحًا شافيًا لا لَبْسَ فيه ولا نَقْصَ بوجهٍ مِنَ الوُجوهِ.

---

قال ابن عطية: (وجعل الله تعالى النَّهارَ مُبصِرًا ليبتغيَ النَّاسُ الرزقَ وفضلَ اللهِ، وجعلَ القمَرَ مُخالِفًا للشَّمسِ لِيُعلَمَ به العددُ مِن السنينَ والحسابِ للأشهرِ وللأيام، ومعرفةُ ذلك في الشَّرعِ إنَّما هي من جهةِ القمَرِ لا من جهةِ الشَّمسِ).

((تفسير ابن عطية)) (442/3).

ومن المفسِّرين من جعَلَ قَولَه تعالى: وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ عائدًا إلى اختلافِ الليلِ والنهارِ وتعاقُبِهما.

ومنهم: ابنُ جرير، وابنُ أبي زمنين، وهو ظاهِرُ قولِ الرسعني، وهو قولُ ابن جُزي، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (515/14)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (14/3)، ((تفسير الرسعني)) (137/4)، ((تفسير ابن جزي)) (443/1)، ((تفسير السعدي)) (ص: 454)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (56/3-57).

قال الشوكاني: (وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وهذا متعلِّقٌ بالفعلينِ جميعًا، أعني مَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لا بأحدِهما فقطْ كالأوَّلِ؛ إذ لا يكونُ علمُ عددِ السِّنينَ والحسابِ، إلَّا باختلافِ الجديدينِ، ومعرفةِ الأيَّامِ والشُّهورِ والسِّنينَ).

((تفسير الشوكاني)) (253/3).

قال البقاعي: (عَدَدَ السِّنِينَ أي: مِن غيرِ حاجةٍ إلى حسابٍ؛ لأنَّ النيِّرينِ يدلَّانِ على تحوُّلِ الحولِ بمجرَّدِ تنقُّلِهما.

ولَمَّا كانا أيضًا يدلَّانِ على حسابِ المطالعِ والمغاربِ، والزيادةِ والنقصانِ، وغيرِ ذلك من الكوائنِ، لِمَن أمعنَ النظَرَ، وبالغَ في الفِكرِ- قال تعالى: وَالْحِسَابَ).

((نظم الدرر)) (385/11).

وقال ابن عاشور: (ثم ذُكِرَت حكمةٌ أخرى حاصلةٌ مِن كلتا الآيتين، وهي حكمةُ حِسابِ السنينَ، وهي في آيةِ اللَّيلِ أظهَرُ؛ لأنَّ جمهورَ البشَرِ يَضبِطُ الشهورَ والسنينَ بالليالي، أي: حساب القمَرِ).

((تفسير ابن عاشور)) (45/15).

كما قال تعالى: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ [النحل: 89].

وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13).

وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ.

أي: وكلَّ إنسانٍ منكم ألزَمْناه عملَه الذي قدَّرْناه عليه؛ وسبَق به قضاؤُنا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، الصادرَ منه باختيارِه، فيُجازَى عليه وَحْدَه، فلا يُحاسَبُ بعَمَلِ غَيرِه، ولا يُحاسَبُ غَيرُه بعَمَلِه.(44)

---

(44) وممن اختار أنَّ المعنى: ألزَمْناه ما قدِّر له في الأزلِ من عملٍ وشـقاوةٍ أو سـعادةٍ: ابنُ جرير، والسـمعاني، وابنُ عطية، والرسعني.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (523/14)، ((تفسير السمعاني)) (225/3)، ((تفسير ابن عطية)) (442/3)، ((تفسير الرسعني)) (137/4).

وممن اختار أنَّ المعنى: ألزَمْناه عملَه يُجازَى به وحدَه لا غيرُه: الماتريدي، وابنُ جزي، وابنُ كثير، والعليمي، والسعدي .

يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (17/7)، ((تفسير ابن جزي)) (443/1)، ((تفسير ابن كثير)) (50/5) ، ((تفسير العليمي)) (86/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 455).

وممن جمَع بينَ المعنيين: البقاعي، والألوسي.

يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (386/11)، ((تفسير الألوسي)) (30/8).

قال الشـنقيطي: (في قولِه جل وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ: وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ وجهانِ معروفانِ من التفسـيرِ: الأول: أنَّ المرادَ بالطائرِ: العملُ، مِن قولِهم: «طار له سهمٌ»؛ إذا خرَج له، أي: ألزمناه ما طار له مِن عملِه.

الثاني: أنَّ المرادَ بالطائرِ: ما سبَق له في علمِ الله من شقاوةٍ أو سعادةٍ، والقولانِ متلازمانِ؛ لأنَّ ما يطيرُ له مِن العملِ هو سببُ ما يَئولُ إليه مِن الشقاوةِ أو السعادةِ...

والوجهانِ المذكورانِ في تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمةِ كلاهما يشهدُ له قرآنٌ.

أمَّا على القولِ الأولِ بأنَّ المرادَ بطائرِه عملُه، فالآياتُ الدالةُ على أنَّ عملَ الإنسـانِ لازمٌ له كثيرةٌ جدًّا؛ كقولِه تعالى: لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ الآية [النسـاء: 123] ، وقولِه: إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الطور:

كما قال تعالى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا [آل عمران: 30].

وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا.

أي: ونُظهِرُ لكُلِّ إنسانٍ يومَ القيامةِ كِتابَ أعمالِه، يَجِدُه مَفتوحًا، حاويًا لكلِّ ما عَمِلَه في الدُّنيا مِن خيرٍ أو شَرٍّ.

كما قال تعالى: وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا [الكهف: 49].

وقال سُبحانَه: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا [الانشقاق: 7-12].

اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14).

---

16]، وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ [الانشقاق: 6] ، وقوله: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا [فصلت: 46] ، وقوله: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: 7، 8].

والآياتُ بمثلِ هذا كثيرةٌ جدًّا.

وأمَّا على القولِ بأنَّ المرادَ بطائرِه نصيبُه الذي طار له في الأزلِ مِن الشقاوةِ أو السعادةِ، فالآياتُ الدالةُ على ذلك أيضًا كثيرةٌ؛ كقوله: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ [التغابن: 2]، وقوله: فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ [الأعراف: 30]، وقوله: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ [الشورى: 7]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ).

((أضواء البيان)) (60/3).

أي: يُقالُ لكلِّ إنسانٍ يومَ القيامةِ: اقرأْ كِتابَ أعمالِك التي كَتَبها الحَفَظةُ فيه، ويَكفي لإحصاءِ أعمالِك نَفسُك؛ فهي الشَّاهِدةُ بأنَّك لم تُظلَمْ، ولم يُكتَبْ عليك سِوى ما عَمِلْتَ.

مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (15).

مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ.

أي: مَن اهتدى فاتَّبَعَ الحقَّ فإنَّما ينفَعُ نَفْسَه بالجزاءِ الحَسَنِ، والعاقبةِ الحَميدةِ في الدُّنيا والآخرةِ.

كما قال تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل: 97].

وقال سُبحانَه: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [فصلت: 46].

وقال عزَّ وجلَّ: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ [الروم: 44، 45].

وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا.

أي: ومَن ضلَّ عن الحَقِّ فإنَّما يجني على نَفسِه، فيَقَعُ ضَرَرُ ذلك عليه في الدُّنيا والآخرةِ.

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى.

أي: ولا تَحمِلُ نفسٌ آثِمةٌ إثمَ نفسٍ أُخرى، ولا يَحمِلُ أحدٌ ذَنْبَ غيرِه.(45)

كما قال تعالى: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى [فاطر: 18].

وقال سُبحانَه: وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [الأنعام: 164].

وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا.

أي: وما كُنَّا مُعَذِّبينَ قومًا إلَّا بعدَ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم بإرسالِ رَسولٍ إليهم، فإذا رَدُّوا الحَقَّ عذَّبْناهم بما يَستَحِقُّون.(46)

---

(45) قال ابنُ عطية (٥/ ٤٥٢): «وبهذه الآية نزعت عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – في الرد على مَن قال: إنّ الميت يعذب ببكاء الحي عليه.

ونكتة ذلك المعنى: إنما هي أن التعذيب إنما يقع إذا كان البكاء مِن سُنَّة الميت وتَسَبُّبِه، كما كانت العرب تفعل».

وقال ابنُ كثير (٨/ ٤٤٥)، فقال: «لا منافاة بين هذا وبين قوله: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله: ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ [النحل: ٢٥]؛ فإن الدعاة عليهم إثم ضلالهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا مَن أضلوا مِن غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئًا، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده».

(46) قال ابنُ جزي: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا قيل: إنَّ هذا في حُكمِ الدُّنيا، أي: أنَّ اللهَ لا يُهلِكُ أمَّةً إلَّا بعد الإعذارِ إليهم بإرسالِ رَسولٍ إليهم.

وقيل: هو عامٌّ في الدُّنيا والآخرةِ، وأنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ قومًا في الآخرة إلَّا وقد أرسَلَ إليهم رسولًا فكَفَروا به وعَصَوه، ويدُلُّ على هذا قولُه تعالى: كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى [الملك: 8- 9] ).

((تفسير ابن جزي)) (443/1).

وقال الشوكاني: (الظاهِرُ أنَّه لا يُعَذِّبُهم لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ إلَّا بعد الإعذارِ إليهم بإرسالِ الرُّسُلِ).

((تفسير الشوكاني)) (254/3).

---

اختُلِف فيمن مات من أولاد المشركين صغيرًا على أربعة أقوال: الأول: أنهم في الجَنَّة؛ لحديث سمرة بن جندب أن النبي – ﷺ – قال في جملة ذلك المنام حين مرَّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، «فقال له جبريل: هذا إبراهيم – عليه السلام –، وهؤلاء أولاد المسلمين، وأولاد المشركين».

والثاني: أنهم في النار؛ لقوله – ﷺ –: «هم مع آبائهم».

والثالث: التوقف في أمرهم.

والرابع: أنهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات؛ فمن أطاع دخل الجنة، وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة، ومَن عصى دخل النار، وانكشف علم الله به بسابق الشقاوة.

ومالَ ابنُ كثير (٨/ ٤٥٥) إلى القول الرابع، فقال: «وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض، وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب الاعتقاد، وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنقاد».

ال ابنُ تيمية (٤/ ٢٠٤ – ٢٠٥) في معرض تعليقه على احتجاج الأشاعرة على المعتزلة في نفي الإيجاب والتحريم العقلي بقوله تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾: «وهو حُجَّة عليهم أيضًا في نفي العذاب مطلقًا إلا بعد إرسال الرسل؛ وهم يجوزون التعذيب قبل إرسال الرسل.

فأولئك يقولون: يعذِّب مَن لم يبعث إليه رسولًا؛ لأنه فَعَلَ القبائحَ العقلية.

وهؤلاء يقولون: بل يعذب مَن لم يفعل قبيحًا قط كالأطفال.

وهذا مخالف للكتاب والسُّنَّة، والعقل أيضًا، قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير* قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾ [الملك: ٨]، فقد أخبر؟ بصيغة العموم أنه كلما ألقي فوج سألهم الخزنة: هل جاءهم نذير؟ فيعترفون بأنهم قد جاءهم نذير، فلم يبق فوج يدخل النار إلا وقد جاءهم نذير، فمن لم يأته نذير لم يدخل النار».

وقال (٤/ ٢٠٦ بتصرف): «لكن الله لا يعذّب أحدًا إلا بعد بلوغ الرسالة، كما قال: ﴿وما كُنّا مُعَذِّبِينَ حَتّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، ولم يفرّق سبحانه بين نوعٍ ونوعٍ، وذكرنا أنّ هذه الآية يحتجّ بها الأشعريّ وأصحابه ومَن وافقهم كالقاضي أبي يعلى وأتباعه، وهم يُجَوِّزون أنّ الله يُعذّب في الآخرة بلا ذنب، حتى قالوا: يعذب أطفال الآخرة.

فاحتجوا بها على المعتزلة، والآية حجّة على الطائفتين».

وبنحوه قال ابن كثير (٨/ ٤٤٦ – ٤٤٧).

وقال ابنُ عطية (٥/ ٤٥٢ – ٤٥٣ بتصرف) مستندًا إلى السياق، والنظائر، ودلالة العقل: «مقصد الآية في هذا الموضع: الإعلام بعادة الله مع الأمم في الدنيا، وبهذا يقرب الوعيد من كفار مكة، ويؤيد هذا ما يجيء بعدُ مِن وصفه ما يكون عند إرادته إهلاك قرية، ومِن إعلامه بكثرة ما أهلك من القرون، ومع هذا فالظاهر من كتاب الله في غير هذا الموضع ومن النظر أن الله تعالى لا يعذب في الآخرة إلا بعد بعثة الرسل، كقوله تعالى: ﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير* قالوا بلى﴾ [الملك: ٨ – ٩]، وظاهر ﴿كلما﴾ الحصر، وكقوله تعالى: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [فاطر: ٢٤]، وأما

كما قال تعالى: وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ [القصص: 59].

وقال سُبحانَه: وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ [الشعراء: 208، 209].

---

مِن جهة النظر فإنّ بعثة آدم – عليه السلام – بالتوحيد، وبث المعتقدات في نبيه، ونصب الأدلة الدالة على الصانع، مع سلامة [الفطر]؛ يوجب على كل أحد من العالم الإيمان، واتباع شريعة الله، ثم تجدَّد ذلك في مدة نوح – عليه السلام – بعد غرق الكفار، وهذه الآية أيضًا يُعطي احتمال ألفاظها نحو هذا، ويجوز مع الفرض وجود قوم لم تصلهم رسالة، ومنهم أهل الفترات الذين قد قدَّر وجودَهم بعضُ أهل العلم».

ثم قال: «وأما ما روي من أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة، وإلى المجانين، والأطفال؛ فحديث لم يصحَّ، ولا يقتضيه ما تقضيه الشريعة مِن أن الآخرة ليست دار تكليف».

وردَّ ابن كثير (٨/ ٤٥٥ – ٤٥٦) كلامًا لابن عبد البر يشبه كلام ابن عطية الأخير، فقال: «الجواب عما قال: أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نصَّ على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها.

وأما قوله: إن الدار الآخرة دار جزاء.

فلا شك أنها دار جزاء، ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار، كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة من امتحان الأطفال، وقد قال تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾ [القلم: ٤٢].

وقد ثبتت السُّنَّة في الصحاح وغيرها أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة، وأما المنافق فلا يستطيع ذلك، ويعود ظهره طبقًا واحدًا، كلما أراد السجود خرَّ لقفاه.

وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجًا منها أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غير ما هو فيه، ويتكرر ذلك مرارًا، ويقول الله تعالى: يا ابن آدم، ما أغدرك.

ثم يأذن له في دخول الجنة».

وقال عزَّ وجلَّ: وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ [فاطر: 37].

وقال تبارك وتعالى: وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ [الزمر: 71– 72].

وقال جلَّ جلاله: كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ [الملك: 8 – 11].

# سورةُ الإسراءِ

## الآيات (16-21)

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا
(16) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17)
مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا
مَدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا
(19) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20) انْظُرْ كَيْفَ
فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (21)

## غريب الكلمات:

مُتْرَفِيهَا: أي: المُنَعَّمِينَ فيها، الذين قد أبطَرَتْهم النِّعمةُ وسَعَةُ العَيشِ، وأصلُ (ترف): يدُلُّ على التَّوسُّعِ في النِّعمةِ.

الْقُرُونِ: جمعُ قَرْنٍ، والقرنُ: القومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المقترنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْر مُقَدَّرٍ بمدةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مدَّة القرنِ مئةُ سنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِن الاقترانِ، وهو اجتماعُ شيئينِ، أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدلُّ على جمعِ شيءٍ إلى شيءٍ.

مَدْحُورًا: أي: مَطرودًا مُبْعَدًا، وأصلُ (دحر): يدلُّ على الطَّردِ والإبعادِ.

## تفسير الآيات:

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16).

**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا.**

**أي: وإذا أرَدْنا أن نُهلِكَ أهلَ قَريةٍ بعَذابٍ في الدُّنيا، أمَرْنا مُتنَعِّميها وجَبابِرَتَها بطاعتي، على لسانِ الرسولِ المبعوثِ إليهم، فخَرَجوا عن أوامِري وعَصَوني.**[47]

---

(47) وممَّن ذهَبَ إلى أنَّ المرادَ بالأمرِ هنا: الأمرُ الشَّرعيُّ، أي: أمَرهم بطاعتِه، فخالَفوا أمرَه وعَصَوه: ابنُ جرير، وابنُ حزم، والنَّسَفي، وابنُ الوزير، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، والشنقيطي، ونسَبَه إلى جمهورِ العُلَماء.

يُنظر: المصادر السابقة.

و((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (29/8).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، وجماعةٌ مِن التَّابِعينَ، منهم ابنُ جريجٍ وغيرُه.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (527/14)، ((تفسير السمعاني)) (227/3).

وقوله: أَمَرْنَا يدلُّ على أنَّه أمَر بالطاعةِ، وإن لم يُذكَرْ؛ كما تقول: أمرتُك فعصيتَني، معناه: أمرتُك بطاعتي.

فإن قيل: لِمَ خصَّ المترفين بالأمر بالطاعة، وأمرُه بالطاعة لا يكون مقصورًا على المُترفين، وقد أمر الله بطاعتِه جميعَ خلقِه من مترَفٍ وغيرِه؟! قيل: لأنَّهم الرؤساءُ الذين مَن عداهم تبَعٌ لهم، كما أن موسى بُعِثَ إلى فرعون ليأمُرَه بطاعة الله، وكان مَن عداه من القبط تبعًا له.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (285/13).

قال الشوكاني: (اختلف المفسّرون في معنى أَمَرْنَا على قولين: الأولُ: أن المرادَ به الأمرُ الذي هو نقيضُ النهي، وعلى هذا اختلفوا في المأمورِ به، فالأكثَرُ على أنَّه الطاعة والخير...

القول الثاني: أنَّ معنى أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا أكثَرْنا فسَّاقَها).

((تفسير الشوكاني)) (254/3).

وممن اختار القولَ الثاني؛ أنَّ (أمر) بمعنى (كثَّر): أبو علي الفارسي، والقصاب.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ آمَرْنَا بمَدِّ الهمزةِ، قيل: المعنى: أكثَرْنا مُتْرَفِيها عددًا، أو أكثَرْنا حُروثَهم وأموالَهم، وقيل غير ذلك.(48)

2- قراءةُ أَمَرْنَا مِن غَيرِ مَدٍّ، مِنَ الأمرِ الذي هو خِلافُ النَّهيِ، والمعنى: أمَرْناهم بالطَّاعةِ ففَسَقوا بمَعصيتِهم اللهَ، وقيل غيرُ ذلك.(49)

فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا.

---

يُنظر: ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (93/5)، ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (227/1).

ويُنظر أيضًا: ((فتح الباري)) لابن حجر (394/8).

وقيل: الأمرُ هنا: أمرٌ كونيٌّ قَدَريٌّ، لا أمرٌ دينيٌّ شَرعيٌّ، أي: أمَرهم أمرًا قَدَريًّا بأن يفسُقوا.

وممَّن اختار ذلك: ابنُ تيميةَ، وابنُ القَيِّم، والسعديُّ، وابنُ عثيمينَ.

يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (151/1)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: 281)، ((تفسير السعدي)) (ص: 455)، ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: 172).

(48) قرأ بها يعقوب.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (306/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (90/2)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (92/5)، ((تفسير ابن عاشور)) (55/15).

(49) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (306/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (528/14، 527)، ((معاني القراءات)) للأزهري (90/2)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (91/5 – 93)، ((تفسير البغوي)) (124/3)، ((تفسير ابن كثير)) (61/5).

أي: فوَجَبَ على أهلِ القَريةِ العَذابُ الذي حُذِّروا منه، فخرَّبْنا القَريةَ تخريبًا، وأهلَكْنا أهلَها فاستأصَلْناهم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17).

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ.

أي: وكثيرٌ مِن أهلِ القُرونِ الماضيةِ عذَّبْناهم في الدُّنيا؛ لكُفرِهم وتَكذيبِهم رُسُلَهم، وذلك مِن بعدِ أوَّلِ الرُّسُلِ نُوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فأنتم –يا كُفَّارَ قُرَيشٍ– لَستُم أكرَمَ على اللهِ منهم، وقد كذَّبتُم أشرَفَ الرُّسُلِ؛ فعُقوبتُكم أَولى وأحرَى إن لم تَنتَهوا عن كُفرِكم وتَكذيبِكم.(50)

كما قال تعالى: وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا [الفرقان: 37 – 39].

وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا.

أي: وحسبُك ربُّك –يا محمَّدُ– خبيرًا بَصيرًا بذُنوبِ عِبادِه، يَعلَمُ بَواطِنَها وظَواهِرَها، لا يخفى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيهم عليها.

---

(50) رجَّحَ ابنُ عطية (٥/ ٤٥٦) أنّ القرن: مائة سنة، مستندًا إلى السنة، فقال مُعلِّقًا على هذا القول: «هذا هو الأصح الذي يعضده الحديث في قوله – ﷺ –: «خير الناس قرني»».

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18).

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ.

أي: مَن كانت نيَّتُه الدَّارَ العاجِلةَ وهي الدُّنيا، ولها وحدَها يَعملُ، ولا يَعملُ لآخِرتِه؛ عَجَّلْنا له في الدُّنيا ما نَشاءُ مِن مَتاعِها وأرزاقِها، لِمَن نريدُ إعطاءَه مِن ذلك.[51]

ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا.

أي: ثمَّ جعَلْنا له في الآخِرةِ عَذابَ جهنَّمَ، فيَدخُلُها ويَحترِقُ بنارِها مذمومًا مِنَ اللهِ ومن عِبادِه، على فَسادِ نيَّتِه، وسُوءِ صَنيعِه، مُبعَدًا مِن رَحمةِ ربِّه، مُقْصًى ذليلًا.

كما قال تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [هود: 15- 16].

(51) قال ابن كثير: (يخبِرُ تعالى أنَّه ما كُلُّ من طلب الدنيا وما فيها من النَّعيمِ يحصُلُ له، بل إنَّما يحصُلُ لمن أراد اللهُ ما يشاء، وهذه مقيِّدةٌ لإطلاقِ ما سواها من الآياتِ).
((تفسير ابن كثير)) (5/62، 63).

وقال سُبحانَه: وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ [الشورى: 20].

وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19).

وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ.

أي: ومَن نوى ثَوابَ الدَّارِ الآخرةِ، وعَمِلَ للجَنَّةِ الأعمالَ الصَّالِحَةَ، بإخلاصٍ لله ومُتابَعةٍ لرَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهو مُؤمِنٌ باللهِ ومَلائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ، ومُصَدِّقٌ بالثَّوابِ والجَزاءِ.(52)

فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا.

أي: فأولئك الذين فعَلوا ذلك كان عملُهم بطاعةِ اللَّه مَقبولًا غيرَ مردودٍ، يُضاعِفُ الله لهم ثوابَه، ويُحسِنُ لهم جزاءَه، معَ تجاوزِه عن سيئاتِهم.

كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20).

---

(52) قال ابنُ عطية (٥/ ٤٥٨): «شـرط في مريد الآخرة أن يسـعى لها سـعيها، وهو ملازمة أعمال الخير، وأقواله على حكم الشرع وطرقه، فأولئك يشكر الله سعيهم، ولا يشكر الله عملًا ولا سعيًا إلا أثاب عليه وغفر بسببه، ومنه قول النبي – ﷺ – في حديث الرجل الذي سقى الكلب العاطش: «فشكر الله له، فغفر له»».
وبنحوه قال ابنُ جرير (١٤/ ٥٣٧)، وكذا ابنُ تيمية (٤/ ٢٠٧)، ومثلهما ابنُ كثير (٨/ ٤٦٤).

كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ.

أي: كلَّ واحدٍ مِن الفَريقينِ: الكافرينَ الذين يُريدُونَ الدُّنيا، والمُؤمنينَ الذين يُريدون الآخرةَ، نَزيدُ –يا مُحمَّدُ– مِن فَضلِ رَبّك ورزقِه.[53]

وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا.

أي: وما كان فَضلُ رَبِّك –يا مُحمَّدُ– مَمنوعًا عن أحدٍ مِن خَلْقِه؛ فلكُلِّ أحدٍ نَصيبٌ منه.[54]

كما قال تعالى: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا [هود: 6].

وقال سُبحانَه: وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ [العنكبوت: 60].

انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (21).

---

(53) قال ابنُ عطية (٥/ ٤٥٨): «قوله: ﴿من عطاء ربك﴾ يحتمل أن يريد: من الطاعات لمريدي الآخرة، والمعاصي لمريدي العاجلة، وروي هذا التأويل عن ابن عباس – رضي الله عنهما –.
ويحتمل أن يريد بالعطاء: رزق الدنيا، وهذا هو تأويل الحسن بن أبي الحسن وقتادة، أي: أن الله تعالى يرزق في الدنيا مريدي الآخرة المؤمنين، ومريدي العاجلة من الكافرين ويمدهم بعطائه منها، وإنما يقع التفاضل والتباين في الآخرة، ويتناسب هذا المعنى مع قوله: ﴿وما كان عطاء ربك محظورا﴾، أي: أن رزقه في الدنيا لا يضيق عن مؤمن ولا كافر، وقلما تصلح هذه العبارة لمن يمد بالمعاصي التي توبقه».

(54) قال السمعاني: (وأجمَعَ أهلُ التَّفسيرِ أن معنى عَطَاءِ رَبِّكَ في هذه السُّورة هو الدُّنيا، فإن الآخِرةَ للمُتقين، وليسَ للكفَّار فيها نصيبٌ).
((تفسير السمعاني)) (229/3).
وقال ابن جرير: (ثمَّ تختَلِفُ بهما [أي: مريدي الدنيا ومريدي الأخرة] الأحوالُ بعد المماتِ، وتفترَقُ بهما بعدَ الورودِ المصادِرُ؛ ففَريقُ مُريدي العاجلةِ إلى جهنَّمَ مَصدَرُهم، وفريقُ مُريدي الآخرةِ إلى الجنَّةِ مآبُهم).
((تفسير ابن جرير)) (537/14).

انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ.

أي: انظُرْ –يا مُحمَّدُ– كيف فضَّلْنا بعضَ النَّاسِ على بَعضٍ في عطاءِ الدُّنيا، كالرِّزقِ، والعِلمِ، والعَقلِ، والجَمالِ، والصحةِ إلى غيرِ ذلك.(55)

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [الروم: 37].

وقال سُبحانَه: نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ [الزخرف: 32].

وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا.

أي: ولَتفاوتُهم في الدارِ الآخرةِ أكبرُ مِن الدُّنيا، فتفاضلُ درجاتِ العاملين في الآخرةِ أكبرُ، وأهلُ الآخرةِ يتفاضلون فيها أكثرَ ممَّا يتفاضلُ الناسُ في الدُّنيا.

كما قال تعالى: وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا [الأنعام: 132].

وقال سُبحانه: وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى [طه: 75].

---

(55) قال ابنُ عطية (٥/ ٤٥٨ – ٤٥٩): «قوله: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ آية تدل دلالة على أن العطاء في الآية التي قبلها هو الرزق».

وقال عزَّ وجلَّ: وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ [الواقعة: 7 – 11].

وقال تبارك وتعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ [النساء: 145].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ مِئَةَ دَرَجةٍ أعدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سَبيلِه، كلُّ درجتَينِ ما بينهما كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فإذا سألتُم اللهَ فسَلُوه الفِردَوسَ؛ فإنَّه أوسَطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفوقَه عَرشُ الرَّحمنِ، ومنه تَفجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ)).[56]

---

(56) رواه البخاري (7423).

## سورةُ الإسراءِ

### الآيات (22–25)

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (22) وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (25)

## غريب الكلمات:

مَخْذُولًا: أي: غيرَ منصورٍ، والخِذلانُ: تركُ مَن كان يؤمّلُ منه النَّصرَ نُصرتَه ومعونتَه، وأصلُ (خذل): يدلُّ على تركِ الشَّيءِ، والقعودِ عنه.

وَقَضَى: أي: أَمَر، والقضاءُ: فصلُ الأمرِ قولًا كان ذلك أو فعلًا.

وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ: تَذلَّلْ لهما، وتواضَعْ، وألِنْ جانِبَك، والخفضُ هو التَّواضُع، والجناحُ: الجانبُ، ويُطلقُ على يدِ الإنسانِ وعضُدِه وإبْطِه، وجَناحُ الذلِّ: تركُ الاستعلاءِ، وأصلُ: (جنح): يدُلُّ على المَيلِ، وأصلُ: (ذل): يدُلُّ على الخُضوعِ، والاستكانةِ، واللِّينِ.

أُفٍّ: اسمُ فِعلٍ يُنبئُ عن التضَجُّرِ والاستِثقالِ، وما يكونُ فيه أدنَى تبَرُّمٍ، أو صوتٌ يُنبئُ عن ذلك، وأصلُ (أفف): يَدلُّ على تَكَرُّهِ الشَّيءِ.

تَنْهَرْهُمَا: أي: تَزجُرْهما، وأصلُ (نهر): يدلُّ على زَجرٍ بمُغالَظةٍ.

لِلْأَوَّابِينَ: أي: للرَّجَّاعينَ التَّوَّابينَ، وأصلُ (أوب): يَدلُّ على رُجوعٍ.

## تفسير الآيات:

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (22).

أي: لا تجعَلْ[57] مع اللهِ معبودًا غيره، فتبقَى –إن أشرَكْتَ باللهِ– مَذمومًا لا حامِدَ لك، مخذولًا لا ناصِرَ لك.

وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23).

وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ.

---

(57) الخِطابُ هنا للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمرادُ به أمَّتُه.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (541/14)، ((تفسير القرطبي)) (236/10)، ((تفسير ابن كثير)) (64/5)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (83/3).

قال الشنقيطي: (الظاهِرُ أنَّ الخطابَ في هذه الآيةِ الكريمة متوجِّهٌ إلى النبي صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم؛ ليُشرَعَ لأمتِه على لسانِه إخلاصُ التوحيد في العبادة له جلَّ وعلا؛ لأنه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم معلومٌ أنَّه لا يجعَلُ مع الله إلهًا آخرَ، وأنَّه لا يقعُدُ مذمومًا مخذولًا...

ومن أساليب اللغة العربية خطابُهم إنسانًا والمرادُ بالخطابِ غيرُه).

((أضواء البيان)) (83/3).

قال ابنُ جرير (١٤/ ٥٤١): «هذا الكلام وإن كان خرج على وجه الخطاب لنبي الله – ﷺ –، فإنه معنيٌّ به جميع مَن لزمه التكليف من عباد الله –جل وعز–».

وبنحوه قال ابنُ عطية (٥/ ٤٥٩)، وكذا ابنُ كثير (٨/ ٤٦٥).

أي: وأمَرَ ربُّك –يا مُحمَّدُ– ووصَّى، وأوجَبَ ألَّا تعبُدوا –أنت وجميعُ الخَلقِ– إلَّا اللهَ وَحدَه.(58)

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا.

أي: وأمَرَكم اللهُ بأن تُحسِنوا إلى الوالِدَينِ بجَميعِ أوجُهِ الإحسانِ مِن الأقوالِ والأفعالِ.(59)

كما قال تعالى: وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا [النساء: 36].

وقال سُبحانَه: قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا [الأنعام: 151].

---

(58) نقل ابنُ عطية (٥/ ٤٦٠) عن الضحاك قوله: «تصحَّف على قوم (وصّى) بـ» قضى «حين اختلطت الواو بالصاد وقت كتْب المصحف».

ثم انتقده مستندًا إلى القراءة الصحيحة، ودلالة العقل قائلًا: «وهذا ضعيف، وإنما القراءة مرويَّةٌ بسند، وقد ذكر أبو حاتم عن ابن عباس – رضي الله عنهما – مثل قول الضحاك، وقال عن ميمون بن مهران: إنه قال: إنّ على قول ابن عباس – رضي الله عنهما – لَنورًا، قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وصّى بِهِ نُوحًا والَّذِي أوْحَينا إلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣]».

ثم ضعَّف أبو حاتم أن يكون ابن عباس قال ذلك، وقال: «لو قلنا هذا لطعن الزنادقة في مصحفنا».

(59) هب ابنُ عطية (٥/ ٤٦٠ بتصرف) إلى أن معنى: ﴿وقضى ربُّكَ ألا تَعْبُدُوا إلا إيّاهُ﴾ مستندًا إلى لغة العرب، ودلالة العقل: «وقضى ربك أمره ﴿ألا تَعْبُدُوا إلا إيّاهُ﴾، وأنه ليس في هذه الألفاظ إلا أمر بالاقتصار على عبادة الله، فذلك هو المَقْضِيُّ، لا نفس العبادة، و» قَضى «في كلام العرب: أتَمَّ المقضيَّ محكمًا.

والمَقْضِيُّ هنا هو الأمر».

[٣٨٢١] ذكر ابنُ عطية (٥/ ٤٦١) أن «الضمير في ﴿تَعْبُدُوا﴾ لجميع الخلق، وعلى هذا التأويل مضى السلف والجمهور».

ثم ذكر احتمالًا آخر: «أن تكون» قَضى «على مشهورها في الكلام، ويكون الضمير في قوله: ﴿تَعْبُدُوا﴾ للمؤمنين من الناس إلى يوم القيامة».

ثم بيَّن موضع قوله تعالى: ﴿وبالوالِدَيْنِ إحْسانًا﴾، فقال: «لكن على التأويل الأول يكون قوله تعالى: ﴿وبالوالِدَيْنِ إحْسانًا﴾ عطفًا على» أن «الأولى، أي: أمر الله ألا تعبدوا إلا إيّاه وأن تحسنوا بالوالدين إحسانًا.

وعلى هذا الاحتمال الذي ذكرناه يكون قوله: ﴿وبالوالِدَيْنِ إحْسانًا﴾ مقطوعًا من الأول، فإنه أخبرهم بقضاء الله –تبارك وتعالى–، ثم أمرهم بالإحسان إلى الوالدين».

وعن نُفَيعِ بنِ الحارِثِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا عندَ رسولِ اللهِ - ﷺ -، فقال: ألَا أنبِّئُكم بأكبَرِ الكبائرِ -ثلاثًا-: الإشراكُ باللهِ، وعُقوقُ الوالِدَينِ، وشَهادَةُ الزُّورِ -أو: قَولُ الزُّورِ-)) الحديث.[60]

وعَن المِقدامِ بن مَعدِ يكَرِبَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - قال: ((إنَّ اللهَ يُوصيكم بأمَّهاتِكم -ثلاثًا- إنَّ اللهَ يُوصيكم بآبائِكم، إنَّ اللهَ يُوصيكم بالأقرَبِ فالأقرَبِ)).[61]

إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ.

أي: إنْ عاشَ والِداك[62] عِندَك، وقد كَبِرت سِنُّهما وضَعُفَت قُواهما؛ أحدُهما أو كِلاهما، فلا تتأفَّفْ؛ إظهارًا لضَجَرِك مِمَّا يُؤذيك منهما، ولا تؤْذِهما بأيِّ نَوعٍ مِن الأذى.

---

(60) رواه البخاري (2654)، ومسلم (87) واللفظ له.

(61) أخرجه ابن ماجه (3661) واللفظ له، وأحمد (17187).
حَسَّن إسنادَه ابنُ حَجَر في ((التلخيص الحبير)) (1304/4)، والشوكاني في ((نيل الأوطار)) (136/7)، وصَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (3661).

(62) قال الشنقيطي: (فالله يخاطِبُ النبيَّ ومقصودُه إسماعُ أمَّتِه والتشريعُ لهم، والدَّليلُ القاطع على هذا: أن النبيَّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم مات أبواه وهو صغير؛ لأنَّ أباه مات وهو حَمْلٌ في بطن أمه، وأمُّه ماتت وهو صغير، ومعلومٌ أنهما وقتَ نزول سورة بني إسرائيل ماتا منذ سنين كثيرة، والله يقولُ للنبي مخاطبًا له ببِرّ الوالدين: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ثم قال مخاطبًا للرسول: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ كلُّ هذا في الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبواه قد ماتا من زمانٍ؛ فدَلَّ على أنَّ قولَه: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أي: يبلغ عندك الكبَرَ أحدُ والديك فبرَّهما وقُلْ لهما قولًا كريمًا، أي: المرادُ خطابُه ليشَرِّعَ لأمَّتِه، ومن زعم من النَّاسِ أنَّ هذا الخِطاب -أي: قولَه: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا- أنَّه يخاطَبُ به مُطلَقُ الإنسانِ المخاطَبِ وليس النبي، فهذا غلطٌ محضٌ؛ لأنَّ كلَّ هذه الخطاباتِ للنبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ وَإِمَّا

وَلَا تَنْهَرْهُمَا.

أي: ولا تزجُرْ والدَيك، وتُغلِظْ لهما القَولَ.

وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا.

أي: وقُلْ لهما قولًا حسَنًا لَيِّنًا رَقيقًا جَميلًا يُفرِحُهما، فيه تأدُّبٌ معهما، وتلَطُّفٌ لهما.

وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24).

وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ.

أي: وكنْ لوالِدَيك ذليلًا مُتواضِعًا؛ رَحمةً منك بهما، ولا تُخالِفْهما فيما يأمُرانِك به ويَنهيانِك عنه مِمَّا ليس فيه مَعصيةٌ لله تعالى.

---

تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ [الإسراء: 28] والدليلُ عليه أنَّه قال: ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ [الإسراء: 39] ؛ فدَلَّ أنَّ الخِطابَ للمُوحى إليه لا إلى مُطلَقِ الواحِدِ مِن النَّاسِ.

وآيةُ الإسراءِ هذه نصٌّ صريحٌ في أنَّ النبيَّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم يخاطَبُ بالخِطابِ ليس هو المرادَ به، بل المرادُ التَّشريعُ لأمَّتِه؛ لأنَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم هو المشَرِّعُ لهم بأقوالِه وأفعالِه).

((العذب النمير)) (2/440-441).

وقال ابنُ عاشور: (الخِطابُ لغيرِ مُعَيَّن فيَعُمُّ كُلَّ مُخاطَبٍ بقَرينةِ العَطفِ على أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وليس خِطابًا للنبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم؛ إذ لم يكن له أبوانِ يومَئذٍ).

((تفسير ابن عاشور)) (15/68).

كما قال تعالى: وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا [لقمان: 14- 15].

وعن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: أوصَاني رسولُ الله - ﷺ -: ((لا تُشرِكْ باللهِ شيئًا وإن قُطِّعْتَ أو حُرِّقْتَ... وأطِعْ والِدَيك، وإنْ أمراك أن تَخرُجَ مِن دُنياك فاخرُجْ لهما)).[63]

وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا.

أي: وقُلْ: رَبِّ ارحَمْ والِديَّ في حَياتِهما وبعدَ مَوتِهما[64]؛ جزاءً لهما على تَربيتِهما لي في صِغَري، وحالِ ضَعفي وعَجزي وافتِقاري.

---

(63) أخرجه ابن ماجه (4034) مختصرًا، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (18)، والطبراني كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (219/4).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (219/4): (فيه شَهرُ بنُ حَوشب، وحديثه حَسَنٌ، وبقيَّةُ رجالِه ثقات)، وحَسَّنَ إسنادَه البُوصيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (304/2)، وابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (75) وقال: (قويٌّ بشَواهده)، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح الأدب المفرد)) (14).

(64) قال ابن جرير: (تحتمِلُ هذه الآيةُ أن تكونَ وإن كان ظاهِرُها عامًّا في كلِّ الآباءِ بغيرِ معنى النَّسخِ، بأن يكونَ تأويلُها على الخصوصِ، فيكونُ معنى الكلامِ: وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا إذا كانا مؤمنَين، كما ربياني صغيرًا، فتكون مرادًا بها الخصوصُ على ما قلنا غيرَ منسوخٍ منها شيءٌ).

((تفسير ابن جرير)) (554/14).

وقال القرطبي: (هذا كلُّه في الأبوين المؤمنين، وقد نهى القرآنُ عن الاستغفار للمشركين الأمواتِ ولو كانوا أُولي قربى.

وقيل: ليس هذا موضعَ نَسخٍ، فهو دعاءٌ بالرَّحمةِ الدنيوية للأبوينِ المشركين ما دامَا حيَّين، كما تقدم.

أو يكونُ عمومُ هذه الآية خُصَّ بتلك، لا رحمُ الآخرةِ...

وقيل: الآيةُ خاصَّةٌ في الدعاء للأبوينِ المسلمين.

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (25).

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ.

أي: ربُّكم –أيُّها النَّاسُ– أعلَمُ بما في قُلوبِكم مِن تعظيمِ حَقِّ الوالِدَينِ والرَّحمةِ بهما، أو الاستخفافِ به، ومِن إرادةِ البِرِّ بهما، أو الإساءةِ إليهما وعُقوقِهما، لا يخفى عليه شَيءٌ مِن ذلك، وهو مُجازيكم عليه، فاحذَروا أن تُضمِروا لهما سُوءًا.

كما قال تعالى: وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ [البقرة: 235].

وقال سُبحانَه: وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [التغابن: 4].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ الله – ﷺ –: ((إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولكِنْ يَنظُرُ إلى قُلوبِكم وأعمالِكم)).(65)

إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا.

---

والصوابُ: أنَّ ذلك عمومٌ كما ذكَرْنا).

((تفسير القرطبي)) (10/244-245).

وقال الشربيني: (هذا إذا كانا مسلمين، فإن كانا كافرين فإنَّ الدعاء لهما بالرَّحمة منسوخٌ بقوله تعالى: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى [التوبة: 113] بل يدعو اللهَ تعالى لهما بالهدايةِ والإرشادِ، فإذا هداهما فقد رَحِمَهما).

((تفسير الشربيني)) (2/297).

(65) رواه مسلم (2564).

أي: إنْ أنتم أصلَحْتُم نِيَّاتِكم -أيُّها النَّاسُ- فكُنتُم صادِقِينَ في نيَّةِ البِرِّ بالوالِدَينِ، مُمتَثِلينَ أمْرَ اللهِ بالإحسانِ إليهما والبرِّ بهما والقيامِ بحُقوقِهما؛ فإنَّ اللهَ للتَّائبينَ إليه مِنَ الزَّلَّاتِ والهَفَواتِ في حَقِّ الوالِدَينِ، الرَّجَّاعِينَ إلى اللهِ وإلى مَرضاتِه مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ- غَفورٌ، يَغفِرُ إساءاتِهم فيَستُرُها عليهم، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها.(66)

(66) اختُلِف في معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ في هذه الآية على أقوال: الأول: هم المسبِّحون.

الثاني: هم المطيعون المحسنون.

الثالث: هم الذين يُصلُّون بيْن المغرب والعشاء.

الرابع: هم الذين يُصلُّون الضُّحى.

الخامس: هو الراجع من ذَنبه، التّائب منه.

وزاد ابنُ عطية (٥/ ٤٦٤) على هذه الأقوال قولًا عن فرقة: أنهم المصلحون.

ثم جمع (٥/ ٤٦٥) بيْن هذه الأقوال بقوله: «وحقيقة اللفظة أنه مِن آبَ يَؤُوبُ: إذا رَجَع، وهؤلاء كلهم لهم رجوع إلى طاعة الله -تبارك وتعالى-، ولكنها لفظة لزم عرفها أهل الصلاح».

ورجَّح ابنُ جرير (١٤/ ٥٦٢) مستندًا إلى لغة العرب القول الخامس، وهو قول ابن عباس من طريق عطية وما في معناه، وعلَّل ذلك بقوله: «لأن الأوّاب إنما هو فعّال، مِن قول القائل: آبَ فلانٌ مِن كذا، إمّا مِن سَفَره إلى منزله، أو من حالٍ إلى حالٍ».

ووافقه ابنُ كثير (٨/ ٤٧٣)، وعلَّل ذلك باللغة، والنظائر، فقال: «لأن الأوّاب مشتقٌّ من الأوب، وهو: الرجوع، يقال: آب فلان: إذا رجع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥]، وفي الحديث الصحيح: أنّ رسول الله - ﷺ - كان إذا رجع من سفر قال: «آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون»».

# سورةُ الإسراءِ

## الآيات (26-31)

وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا
إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ
تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (28) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ
الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ
خَبِيرًا بَصِيرًا (30) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ
خِطْئًا كَبِيرًا (31)

## غريب الكلمات:

تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا: التَّبذيرُ: الإسرافُ في النفقةِ، وتفريقُها في غيرِ ما أحلَّ اللهُ عزَّ وجلَّ، ويُقالُ لكلِّ مضيّعٍ مالَه، والتَّبذيرُ: التَّفريقُ، يُقالُ: بَذرتُ الأرض، أي: فرَّقْت البذرَ فيها، أي: الحبَّ، وأصلُ (بذر): هو نَثْرُ الشَّيءِ وتفريقُه.

مَغْلُولَةً: أي: مُمْسَكةً مَقبوضةً، كأنَّها بالمنعِ مَشدودةٌ بالغُلِّ: وهو القَيدُ يُجعَلُ في العُنُقِ.

مَحْسُورًا: أي: مُنقَطِعًا عن النَّفَقةِ والتصرُّفِ، لِذَهابِ ما يَقوى به، وانحِسارِه عنه، ومنه البَعيرُ الحَسيرُ: الذي قد حَسَره السَّفَرُ، أي: ذهَبَ بلَحمِه وقُوَّتِه، فلا انبِعاثَ به، وأصلُ (حسر): يدُلُّ على كَشفِ الشَّيءِ وذَهابِه.

وَيَقْدِرُ: أي: يُضَيِّقُ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه، كأنَّما جُعِلَ رِزقُه بقَدْرٍ يَسيرٍ.

إِمْلَاقٍ: أي: فَقرٍ، وتجَرُّدٍ عن المالِ، وأصلُ (ملق): يدلُّ على تَجَرُّدٍ ومَلاسةٍ، كأنَّه بإنفاقِه لم يَبقَ له إلَّا المَلَقاتُ، وهي الحِجارةُ العِظامُ المُلْسُ التي لا يتعَلَّقُ بها شَيءٌ.

خِطْئًا: أي: إثمًا وخَطيئةً، يُقالُ: خَطِئ يَخطَأُ خِطئًا مِثلُ أثِمَ يأثَمُ إثمًا: إذا تعمَّد الخَطأَ، وأخطأَ: إذا لم يتعَمَّدْ، فالخِطْءُ: ما تُعمِّدَ، والخَطأ: ما لم يُتعَمَّدْ.

## تفسير الآيات:

وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26).

وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ.

أي: وأعْطِ القَريبَ –يا مُحَمَّدُ[67] – حقَّه من الصِّلةِ والعَطفِ والمُواساةِ، والمِسكينَ حَقَّه مِن الصَّدَقةِ، والمُسافِرَ المُنقطِعَ المُجتازَ بك حَقَّه مِنَ الضِّيافةِ، والإعانةِ على وُصولِه إلى مَقصِدِه.[68]

وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا.

---

(67) قال ابنُ جرير: (خرج ذلك مَخرجَ الخِطابِ لنبيِّ اللهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، والمرادُ بحُكمِه جَميعُ مَن لَزِمَته فرائِضُ اللهِ).
((تفسير ابن جرير)) (564/14).
اختُلِف في معنى: ﴿وآتِ ذا القُرْبى حَقَّهُ﴾ في هذه الآية على قولين: الأول: أنه قرابة الرجل من قِبل أبيه وأمه.
الثاني: أنهم قرابة الرسول – ﷺ –.
ورجَّح ابنُ جرير (١٤/ ٥٦٣ – ٥٦٤) مستندًا إلى دلالة السياق القول الأول، وهو قول ابن عباس من طريق العوفي، وقول عكرمة، وما في معناه، وعلَّل ذلك بقوله: «أن الله – عز وجل – عقَّب ذلك عَقيبَ حضِّه عباده على برِّ الآباء والأمهات، فالواجب أن يكون ذلك حضًّا على صلة أنسابهم دون أنساب غيرهم التي لم يَجْرِ لها ذِكْر».
ورجَّحه ابنُ عطية (٥/ ٤٦٥) أيضًا مستندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «والقول الأول أبْيَن، ويعضده العطف بالمسكين وابن السبيل».

(68) ذكر ابنُ جرير (١٤/ ٥٦٤) أن معنى: ﴿وابن السَّبِيلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وءاتِ ذا القُرْبى حَقَّهُ والمِسْكِينَ وابن السَّبِيلِ﴾، أي: «والمجتاز بك المنقَطَعَ به، فأَعِنْه، وقَوِّه على قَطْعِ سفره».
ونقل قولًا ولم ينسبه: أن معنى الأَمْر «بإيتاء ابن السبيل حقَّه أن يُضاف ثلاثة أيام».
ورجَّح مستندًا إلى دلالة العموم المعنى الأول الذي ذَكَره، وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّ الله تعالى لم يَخْصُصْ من حقوقه شيئًا دون شيءٍ في كتابه، ولا على لسان رسوله، فذلك عامٌّ في كلِّ حقٍّ له أن يُعطاه؛ من ضيافته، أو حمله، أو معونته على سفره».

أي: ولا تُفرّقْ أموالَك بإنفاقِها في غَيرِ حَقِّها ومَواضِعِها التي تستَحِقُّ الإنفاقَ فيها، وذلك كالإنفاقِ في مَعصيةِ اللهِ تعالى.

كما قال تعالى: وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ [النساء: 5].

وقال سُبحانَه: وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ [الأنعام: 141].

وعن المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حرَّمَ عليكم عُقوقَ الأمَّهاتِ، ووأْدَ البَناتِ، ومنعًا وهاتِ، وكَرِهَ لكم ثلاثًا: قيلَ وقال، وكثرةَ السُّؤال، وإضاعةَ المال)).(69)

إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27).

إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ.

أي: إنَّ المُفرِّقينَ أموالَهم في غَيرِ حَقِّها ووجْهِها المَشروعِ كانوا إخوانَ الشَّياطينِ؛ لاتِّباعِهم إيَّاهم في التَّبذيرِ والسَّفَهِ ومَعصيةِ اللهِ.

---

(69) رواه البخاري (2408)، ومسلم (593) واللفظ له.

وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا.

أي: وكان الشَّيطانُ لرَبِّه جَحودًا لنِعَمِه لا يَشكُرُها، فيَترُكُ طاعةَ اللهِ، ويُقبِلُ على مَعصيتِه.[70]

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (28).

أي: وإنْ تُعرِضْ –يا محمَّدُ– عن إعطاءِ الأقارِبِ والمَساكينِ وأبناءِ السَّبيلِ حُقوقَهم؛ لِقِلَّةِ مالِك، وأنتَ تنتَظِرُ رِزقًا مِن عندِ ربِّك؛ تَرْجو أن يُيسِّرَه لك، فلا تُؤيِّسْهم مِن عَطائِك، ولا تُغلِظْ لهم القَولَ، وإنَّما قلْ لهم قولًا لَيِّنًا لَطيفًا طيِّبًا تقبَلُه نُفوسُهم، كالاعتِذارِ الحَسَنِ، والوعْدِ الجَميلِ بإعطائِهم، والدُّعاءِ لهم بالرِّزقِ.

كما قال تعالى: قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى [البقرة: 263].

وقال سُبحانَه: وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ [الضحى: 10].

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29).

---

(70) وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالكفرِ هنا هو جحودُ نِعَمِ الله تعالى: ابن جرير، والواحدي، والبغوي، وابن كثير.
يُنظر: المصادر السابقة.
وقال ابن عاشور: (هذا تحذيرٌ شديدٌ مِن أن يفضيَ التبذيرُ بصاحبه إلى الكفرِ تدريجًا؛ بسبَبِ التخَلُّقِ بالطبائع الشيطانية، فيذهبُ يتدهورُ في مهاوي الضلالةِ حتى يبلُغَ به إلى الكفرِ، كما قال تعالى: وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ [الأنعام: 121].
ويجوز حَملُ الكفر هنا على كُفرِ النعمة، فيكونُ أقربَ درَجاتٍ إلى حالِ التخَلُّقِ بالتبذير؛ لأنَّ التبذير صَرفُ المال في غيرِ ما أمرَ الله به، فهو كفرٌ لنعمةِ الله بالمال، فالتخَلُّقُ به يُفضي إلى التخَلُّقِ والاعتيادِ لكُفرانِ النِّعَمِ).
((تفسير ابن عاشور)) (81/15).

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ.

أي: ولا تُمسِكْ يَدَك بُخلًا عن النَّفَقةِ في الخَيرِ كُلَّ الإمساكِ وكأنَّها مُقَيَّدةٌ إلى عُنُقِك، فلا تستطيعُ أن تَمُدَّها لتُعطيَ أحدًا شيئًا من الخَيرِ.[71]

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه سَمِعَ رَسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ: ((مَثَلُ البَخيلِ والمُنفِقِ كمَثَلِ رَجُلَينِ عليهما جُبَّتانِ[72] مِن حَديدٍ مِن ثُدِيِّهما إلى تَراقِيهما[73] ؛ فأمَّا المُنفِقُ فلا يُنفِقُ إلَّا سَبَغَت[74] أو وَفَرَت[75] على جِلْدِه، حتى تُخفِيَ بَنانَه وتَعفوَ أثَرَه،[76] وأمَّا البَخيلُ فلا يُريدُ أن يُنفِقَ شَيئًا إلَّا لَزِقَت كُلُّ حَلْقةٍ مَكانَها، فهو يُوَسِّعُها ولا تَتَّسِعُ)).[77]

---

(71) قال الواحدي: (قال صاحب النظم [أبو علي الجرجاني]:...
قد يمنَعُ الإنسانُ في مواضِعِ المنعِ ولا يرجِعُ عليه بلومٍ، فلذلك قال عزَّ وجلَّ: وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ أي: لا تكنْ ممسِكًا عن البَذلِ عادةً، ولم يُرِد ألَّا يمسِكَ عند وقتِ الإمساك، يدلُّ على ذلك قولُه تعالى: وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ).
((البسيط)) (317/13، 318).

(72) جُبَّتانِ: واحِدُه جُبَّةٌ، وهو ثوبٌ سابغٌ واسِعُ الكُمَّينِ، مَشقوقُ المُقَدَّم، يُلبَسُ فوقَ الثياب.
يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (273/10)، ((المعجم الوسيط)) (104/1).

(73) تَراقِيهما: جمعُ تَرقُوَة: وهما عَظْمانِ مُشرِفان في أعلى الصَّدرِ.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (37/3).

(74) سَبَغَت: أي: امتدَّت وغطَّت.
يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (3/ 306).

(75) وَفَرَت: أي: كَمَلَت.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (37/3).

(76) وتعفوَ أثَرَه: أي: تمحُوَه وتطمِسَه.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (37/3).

(77) رواه البخاري (1443) واللفظ له، ومسلم (1021).

وعن أسماءَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((انفَحي أو انضِحي[78] أو أنْفِقي، ولا تُحصي فيُحصِيَ اللهُ عليك، ولا تُوعِي[79] فيُوعِيَ اللهُ عليك)).[80]

وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ.

أي: ولا تَبسُطْ يدَك بالعَطاءِ والإنفاقِ كُلَّ البَسطِ، فتُنفِقَ فَوقَ طاقتِك، وتبقَى بلا مالٍ لَدَيك.[81]

فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا.

أي: فتَبقى ملومًا عندَ اللهِ تعالى، وعندَ النَّاسِ، وعندَ نفسِك، مُنقَطِعًا، لا شيءَ لديك لتُنفِقَه، عاجزًا عن إقامةِ شُؤونِك.[82]

---

(78) النَّفحُ والنَّضحُ: العَطاءُ.
ويُطلَقُ النَّضحُ أيضًا على الصبِّ، وهو أبلَغُ مِن النَّفحِ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (118/7).

(79) لا تُوعِي: أي: لا تجمَعي في الوِعاءِ وتَبخلي.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (347/4).

(80) رواه البخاري (2591)، ومسلم (1029) واللفظ له.

(81) نقل ابنُ عطية (٥/ ٤٦٧) قول مجاهد عند تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تَبسُطها كُلَّ البَسطِ﴾، ثم انتقده قائلًا: «وهذا فيه نظر، ولا بعض البسط لم يُبح فيما نُهي عنه، ولا يقال في المعصية: ولا تُبَذِّرْ.
وإنما يقال: ولا تنفق ولو باقتصاد وقوام».
ثم علَّق على قول ابن مسعود، وابن عباس بقوله: «ولله دَرُّ ابن عباس، وابن مسعود – رضي الله عنهم – فإنهما قالا: التبذير: الإنفاق في غير حق.
فهذه عبارةٌ تَعُمُّ المعصيةَ، والسَّرف المباح».

(82) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (251/10)، ((تفسير ابن كثير)) (70/5)، ((تفسير ابن عاشور)) (85/15).

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا [الفرقان: 67].

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (30).

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ.

أي: إنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- يُوسِّعُ رِزقَه على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على مَن يشاءُ منهم، بحَسَبِ حِكمَتِه سُبحانَه.

---

قال القُرطبيُّ: (نهى اللهُ سُبحانَه وتعالى عن الإفراطِ في الإنفاقِ، وإخراجِ ما حَوَتْه يدُه من المالِ مَن خِيفَ عليه الحَسرةُ على ما خرَجَ مِن يَدِه، فأمَّا من وَثِقَ بموعودِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ وجَزيلِ ثوابِه فيما أنفقَه، فغيرُ مُرادٍ بالآيةِ، واللهُ أعلَمُ).
((تفسير القرطبي)) (250/10).
ويُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (70/3-72).
وذهب ابنُ جرير، والواحدي، والزمخشري، والبيضاوي، وابنُ جزي إلى أنَّ الملومَ والمحسورَ كلاهما يرجعانِ إلى بسطِ اليدِ بالنفقةِ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (573/14)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 633)، ((تفسير الزمخشري)) (662/2)، ((تفسير البيضاوي)) (253/3)، ((تفسير ابن جزي)) (445/1).
قال الزمخشري: (فَتَقْعُدَ مَلُومًا فتصير ملومًا عندَ الله؛ لأنَّ المسرفَ غيرُ مرضيٍّ عندَه وعندَ الناسِ، يقولُ المحتاجُ: أعطَى فلانًا وحرَمني.
ويقولُ المستغني: ما يُحسِنُ تدبيرَ أمرِ المعيشةِ).
((تفسير الزمخشري)) (662/2).
وممَّن ذهب إلى أنَّ الملوم يرجعُ إلى قوله تعالى: وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وأنَّ المحسورَ يرجعُ إلى قولِه تعالى: وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فالملومُ يرجعُ إلى النهيِ عن الشحِّ، والمحسورُ يرجعُ إلى النهيِ عن التبذيرِ، ممن ذهب إلى ذلك: ابنُ كثير، والشوكاني، وابنُ عاشور.
يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (70/5)، ((تفسير الشوكاني)) (264/3)، ((تفسير ابن عاشور)) (85/15).

إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا.

أي: لأنَّه خَبيرٌ ببواطِنِ عِبادِه وأحوالِهم وأخبارِهم، بَصيرٌ بظَواهِرِهم وكيفيَّةِ تَدبيرِهم في أرزاقِهم وغَيرِها؛ فهو أعلَمُ بمصالِحِ عبادِه وما يَليقُ بكُلٍّ منهم، فيَعلَمُ مَن يَصلُحُ له الغِنى، ويَعلَمُ مَن يَصلُحُ له الفَقرُ.

كما قال تعالى: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [العنكبوت: 62].

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31).

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ.

أي: ولا تقتُلوا -أيُّها الآباءُ- أولادَكم؛ خَوفًا مِن أن يُصيبَكم الفَقرُ بالإنفاقِ عليهم.

نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ.

أي: نحن نُعطي أولادَكم -أيُّها الآباءُ- رِزقَهم، ولَستُم الرَّازِقينَ لهم، ونُعطيكم رِزقَكم أيضًا؛ فلا تَخشَوُا الفَقرَ بسَبَبِهم.

إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا.

أي: إنَّ قتلَ الآباءِ لأولادِهم ذَنبٌ عَظيمٌ.

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أيُّ الذَّنبِ أعظَمُ؟ قال: أن تَجعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وهو خَلَقَك، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: أن تَقتُلَ ولَدَك؛ مِن أجْلِ أن يطعَمَ مَعَك، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: أن تُزانِيَ حَليلةَ[83] جارِك)).[84]

---

(83) حَليلةُ جارِك : أي: زَوجَتُه.
سُمِّيَت بذلك لكَونِها تَحِلُّ له.
((شرح النووي على مسلم)) (81/2).

(84) رواه البخاري (6811) واللفظ له، ومسلم (86).

# سورةُ الإسراءِ

## الآيات (32-35)

وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (33) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35)

## غريب الكلمات:

فَاحِشَةً: أي: فِعلةً مُتناهِيةً في القُبحِ، وأصلُ (فحش): يدلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ.

لِوَلِيِّهِ: أي: مَن يَلي أمرَه مِنْ وَرَثَتِه إنْ كانُوا مَوْجودينَ، أو مِمَّنْ له سلطانٌ إنْ لم يَكُونوا مَوجودينَ، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه، وأصْلُ (ولي): يدلُّ على القُرْب، سواء من حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ.

سُلْطَانًا: أي: تَسَلُّطًا على القاتِل، أو حُجَّةً، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقَهرُ، مِنَ التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّيَ السُّلطانُ سُلطانًا.

يَبْلُغَ أَشُدَّهُ: أي: يتناهَى في الثَّبَاتِ إلى حدِّ الرِّجالِ، أو يبلُغ مُنْتَهى شَبابِه وقُوَّتِه، والأَشُدُّ قيل: جمعٌ لا واحدَ له، وقيل: مفردُه شَدٌّ، وأَصْلُ (شدد): يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ.

بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ: أي: المِيزانِ العَدلِ السَّويِّ، وأصلُ (قسط) هنا: يدلُّ على العَدلِ.

تَأْوِيلًا: أي: عاقِبةً، والعاقِبةُ تُسَمَّى تأويلًا؛ لأنَّها مآلٌ، مِن آلَ يؤولُ أَوْلًا: إذا رجَعَ، وأصلُ (أول): ابتداءُ الأمرِ وانتهاؤُه.

## تفسير الآيات:

وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32).

وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا.

أي: ولا تدنُوا –أيُّها النَّاسُ– مِن فِعلِ الزِّنا، وابتَعِدوا عن مُقَدِّماتِه ودواعيه.

إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا.

أي: إنَّه كان ذنبًا عَظيمًا غايةً في القُبحِ؛ في الشَّرعِ، والعَقلِ، والفِطرةِ، وبِئسَ طريقًا طَريقُ الزِّنا؛ لأنَّه يُؤدِّي إلى أنواعٍ مِن المفاسدِ في الدُّنيا،[85] وإلى العذابِ والخِزيِ في الآخرةِ، فما أسوأَه مِن طَريقٍ![86]

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (33).

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ.

---

(85) قال الخازن: (الزِّنا يشتَمِلُ على أنواعٍ من المفاسِدِ، منها المعصيةُ، وإيجابُ الحدِّ على نفسِه، ومنها اختِلاطُ الأنسابِ، فلا يعرِفُ الرجلُ وَلَدُ مَن هو؟ ولا يقومُ أحدٌ بتربيته، وذلك يوجِبُ ضياع الأولاد، وانقطاعَ النَّسلِ، وذلك يوجِبُ خراب العالم).

((تفسير الخازن)) (129/3).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (332/20).

(86) قال ابنُ القيم: (أخبَر عن غايته [أي: الزنا] بأنَّه «سَاءَ سَبِيلًا» فإنَّه سبيلُ هلكةٍ وبوارٍ وافتقارٍ في الدُّنيا، وعذابٍ وخزيٍ ونكالٍ في الآخرةِ).

((الجواب الكافي)) (ص: 151).

أي: ولا تَقتُلوا النَّفسَ التي حرَّم اللهُ قتلَها إلَّا إذا استَحقَّتِ القَتلَ شَرعًا.

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله - ﷺ -: ((لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مُسلمٍ يَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنِّي رَسولُ اللهِ، إلَّا بإحدى ثَلاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّاني، والنَّفسُ بالنَّفسِ، والتَّارِكُ لدِينِه المُفارِقُ للجَماعةِ)).[87]

وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا.

أي: ومَن قُتِل ظُلمًا بغيرِ حَقٍّ، فقد جعَلْنا لوليِّ المَقتولِ سُلطةً وتسَلُّطًا على القاتِلِ؛ فهو بالخِيارِ: إن شاء قتَلَه قِصاصًا، وإن شاء أخَذَ الدِّيةَ، وإن شاء عَفا عنه.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((ومَن قُتِلَ له قَتيلٌ، فهو بخَيرِ النَّظَرينِ؛ إما أن يُفدَى،[88] وإمَّا أن يُقِيدَ)).[89]

---

(87) رواه البخاري (6878)، ومسلم (1676) واللفظ له.

(88) يُفْدَى: أي: يُعطَى الدِّيةَ.

يُقِيدَ: أي: يَقتَصَّ.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (4/248).

(89) رواه البخاري (2434) واللفظ له، ومسلم (1355).

فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا.

أي: فلا يَتَجاوَزْ وَلِيُّ المَقتولِ ما حُدَّ له، فيتعدَّى بقَتلِ غَيرِ القاتِلِ، أو يَقتُل بالواحِدِ اثنَينِ أو أكثَرَ، أو يُمَثِّل بالقاتِلِ؛ إنَّ وَلِيَّ المَقتولِ كان مُعانًا على القاتِلِ بتَسليطِه عليه بالقِصاصِ، أو بأخْذِ الدِّيةِ، أو بالعَفوِ.(90)

---

(90) اختُلِف في معنى: ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي القَتْلِ﴾ بناءً على اختلاف القرأة في قراءتها؛ فمن قرأها:» فَلَا تُسرِف «بالتاء: كانت على معنى الخطاب لرسول الله – ﷺ –، ولأُمَّته بعده.

ووجَّهه ابنُ عطية (٥/ ٤٧٢) بقوله: «أي: فلا تقتلوا غير القاتل».

ثم ذكر احتمالًا آخر أن يكون الخطاب للوليّ، فقال: «ويصحّ أن يراد به الوليّ، أي: فلا تسرف –أيُّها الوليُّ– في قتل أحد متحصل في هذا الحكم».

ومن قرأها: ﴿فلا يُسرِف﴾ بالياء كان له فيها معنيان: الأول: فلا يُسرِف وليُّ المقتول فيَقْتُل غير قاتِلِ وليّه.

الثاني: فلا يُسرِف القاتل في القتل.

ووجَّهه ابنُ عطية بقوله: «والمعنى: فلا يكن أحد من المسرفين بأن يقتل نفسًا، فإنه يحصل في سياق هذا الحكم».

ورجَّح ابنُ جرير (١٤/ ٥٨٥، ٥٨٨) صوابَ القراءتين وتقارب معنييهما، ثم رجَّح صحة المعاني المبنية عليها القراءات مستندًا إلى دلالة العموم، فقال: «وإن كان كِلا وجهَي القراءة عندنا صوابًا، فكذلك جميع أوجُهِ تأويله التي ذكرناها غيرُ خارجٍ وجهٌ منها من الصواب».

وعلَّل ذلك بقوله: «لاحتمال الكلام ذلك، وإنّ في نهي الله –جلَّ ثناؤه– بعضَ خَلْقِه عن الإسراف في القتل نهيًا منه جميعَهم عنه».

اختُلِف في عود الضمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ على ثلاثة أقوال: الأول: أنه يعود على وليّ المقتول، وهو المنصور على القاتل، والمعنى: إنه كان منصورًا بتمكينه من القَوَد.

الثاني: أنه يعود على المقتول، والمعنى: إنه كان منصورًا بقتل قاتله.

الثالث: أنه يعود على دم المقتول، والمعنى: إن دم القتيل كان منصورًا، أي: مطلوبًا به.

ورجَّح ابنُ جرير (١٤/ ٥٨٩) مستندًا إلى دلالة اللغة، والدلالة العقلية القولَ الأول، وهو قول قتادة، وعلَّل ذلك بقوله: «لأنه هو المظلوم، ووَلِيُّه المقتول، وهي إلى ذِكْرِه أقربُ من ذِكْر المقتول، وهو المنصور أيضًا؛ لأن الله –جلَّ ثناؤه– قضى في كتابه المُنَزَّل أن سلَّطه على قاتل وليّه، وحكَّمه فيه بأن جعل إليه قتْلَه إن شاء، واستبقاءَه على الدِّيَة إن أحبَّ، والعفوَ عنه إن رأى، وكفى بذلك نصرةً له من الله، فلذلك قلنا: هو المعنيُّ بالهاء التي في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾».

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34).

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

أي: ولا تَقْربوا مالَ اليتيمِ إلَّا بالطَّريقةِ التي هي أحسَنُ وأفضَلُ؛ وذلك بإصلاحِه والمُحافظةِ عليه، وتَثميرِه وتَنميتِه.

كما قال تعالى: وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا [النساء: 2].

وقال سُبحانَه: وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ [النساء: 6].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا [النساء: 10].

---

ورجَّح ابنُ عطية (٥/ ٤٧٣) مستندًا إلى الدلالة العقلية القول الثاني، وهو قول مجاهد، فقال: «وهو أرجح الأقوال؛ لأنه المظلوم، ولفظة النصر تقارن أبدًا الظلم، كقوله عليه الصلاة والسلام: «ونَصْر المظلوم، وإبْرار القَسم».
وكقوله – ﷺ –: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا».
إلى كثيرٍ من الأمثلة».
ونقل قولًا عن أبي عبدة: أن الضمير يعود «على القاتل؛ لأنه إذا قُتِل في الدنيا وخلص بذلك من عذاب الآخرة فقد نُصِر».
ثم انتقده قائلًا: «وهذا ضعيفٌ بعيد المقصد».

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسول الله – ﷺ – قال: ((يا أبا ذرٍّ، إنِّي أراك ضعيفًا، وإنِّي أُحِبُّ لك ما أُحبُّ لنفسي، لا تَأَمَّرَنَّ على اثنينِ، ولا تَوَلَّيَنَّ مالَ يتيمٍ)).(91)

حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ.

أي: لا تَقرَبوا مالَ اليتيمِ إلا بالتي هي أحسنُ حتَّى يبلُغَ الحُلُمَ والرُّشدَ، بحيث يَكمُلُ عَقلُه ويتمَكَّنُ مِن تَدبيرِ مالِه، فإذا بلغَ ذلك زالتْ عنه الوِلايةُ، وصار وليَّ نَفسِه، ودُفِعَ إليه مالُه.

كما قال تعالى: وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ [النساء: 6].

وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ.

أي: وأوفُوا –أيُّها النَّاسُ– بالعُهودِ التي عاهَدْتُم اللهَ عليها، وبالعُقودِ التي بينكم.

كما قال سُبحانَه: وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا [الأنعام: 152].

وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ [المائدة: 1].

إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا.

(91) رواه مسلم (1826).

أي: أوفُوا بالعهودِ؛ لأنَّ اللهَ سيَسألُكم عنها يومَ القيامةِ، ويُجازيكم على الوَفاءِ بها وعَدَمِه؛ فلا تَنقُضوها.

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35).

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ.

أي: وأوفُوا النَّاسَ الكَيلَ إذا كِلْتُم لهم، وأوفُوهم حُقوقَهم -بالعَدلِ- تامَّةً مِن غَيرِ نَقصٍ.

كما قال تعالى: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا [الأنعام: 152].

وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ.

أي: وزِنوا للنَّاسِ بالمِيزانِ السَّويِّ الذي لا انحِرافَ فيه ولا اعوِجاجَ، ولا غِشَّ ولا خديعةَ.

كما قال تعالى: وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ [الرحمن: 9].

ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا.

أي: ذلك الوَفاءُ في الكَيلِ والمِيزانِ خَيرٌ لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن التَّطفيفِ، وأحسَنُ عاقِبةً لكم في دُنياكم: بالبَرَكة وانشِراحِ النَّفسِ وغيرِ ذلك، وفي أُخراكم: بالثَّوابِ مِنَ اللهِ تعالى.

كما قال تعالى حاكيًا قولَ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ: وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [هود: 85– 86].

## سورةُ الإسراءِ

### الآيات (36–39)

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا
(36) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) كُلُّ
ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (38) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ
مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (39)

## غريب الكلمات:

**تَقْفُ:** أي: تَتَبعْ، وأصلُ (قفو): يدُلُّ على إتباعِ شَيءٍ لِشَيءٍ.

**مَرَحًا:** أي: مُختالًا مُستَكبِرًا، وأصلُ (مرح): يدلُّ على مَسَرَّةٍ لا يكادُ يستَقِرُّ معها المرءُ طَرَبًا.

**تَخْرِقَ الْأَرْضَ:** أي: تنقُبَها، وتثقبها إلى الجانبِ الآخرِ. وقيل: تَقْطَعَها وتَبلُغَ أطرافَها، وأصلُ (خرق): يدُلُّ على مَزْقِ الشَّيءِ وقَطعِه.

## تفسير الآيات:

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا

(36).

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ.

أي: ولا تَقُلْ أو تفعَلْ شيئًا بمُجَرَّدِ الظَّنِّ، فتَتْبَعْ ما لا عِلمَ لك به، ولا دليلَ على صِحَّته، ومِن ذلك: رَميُ النَّاسِ وقَذفُهم بالباطِلِ، والشَّهادةُ عليهم بغَيرِ الحَقّ.(92)

كما قال تعالى: وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ [النحل: 116].

وقال سُبحانَه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ [الحجرات: 12].

---

(92) اختُلِف في معنى: ﴿ولا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ في هذه الآية على قولين: الأول: ولا تَقُلْ ما ليس لك به علم.
الثاني: لا تَرْمِ أحدًا بما ليس لك به علم.
ورجَّح ابنُ جرير (١٤/ ٥٩٥) شمول الآية للمعنيين مستندًا إلى دلالة العموم، وعلَّل ذلك بقوله: «لأن القول بما لا يعلمه القائل يدخل فيه شهادة الزور، ورَمْيُ الناس بالباطل، وادعاءُ سماع ما لم يَسْمَعْهُ ورؤية ما لم يَرَهُ».
وذكر ابنُ جرير (١٤/ ٥٩٥) أن أصل القَفْو: «العَضَهُ والبَهْتُ، ومنه قول النبي – ﷺ –: «نحن بنو النضر بن كنانة لا نَقْفُو أُمَّنا، ولا نَنتفي من أبينا»».
ثم نقل عن بعض اللغويين أن معنى قوله: ﴿ولا تَقْفُ﴾: لا تَتَّبعْ ما لا تعلم ولا يَعْنِيك، وأن أصله القيافة، وهي اتِّباع الأثر.
ثم رجَّح (١٤/ ٥٩٦) مستندًا إلى الأغلب من لغة العرب ما ذهب إليه من أن معنى: ﴿ولا تَقْفُ﴾: «لا تَقُلْ للناس وفيهم ما لا علم لك به، فَتَرْمِيَهم بالباطل، وتَشْهَدَ عليهم بغير الحق، فذلك هو القَفْوُ».
وعلَّل ذلك بقوله: «لأن ذلك هو الغالب من استعمال العرب القَفْوَ فيه».

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا [النجم: 28].

إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا.

أي: إنَّ سَمْعَ الإنسانِ وبَصرَه وقَلْبَه، كُلُّ هذه الأعضاءِ العَظيمةِ، العاليةِ المنافِعِ، البَديعةِ التَّكوينِ، سيَسألُ اللهُ الإنسانَ عنها يومَ القيامةِ فيما استعمَلَها، وتُسأَلُ هي عمَّا عَمِلَ فيها صاحِبُها، فتَشهَدُ عليه بما قال وفَعَل مِن خَيرٍ وشَرٍّ.[93]

كما قال تعالى: وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [النحل: 93].

وقال سُبحانَه: حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [فصلت: 20].

---

(93) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٤٨٠) احتمالين آخرين لعود الضمير في ﴿عَنْهُ﴾، فقال: «والضمير في ﴿عنه﴾ يعود على ما ليس للإنسان به علم، ويكون المعنى: أن الله تعالى يسأل سمع الإنسان وبصره وفؤاده عما قال مما لا علم له به، فيقع تكذيبه من جوارحه، وتلك غاية الخزي.

ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿عَنْهُ﴾ على ﴿كُلُّ﴾ التي هي للسمع والبصر والفؤاد، والمعنى: أن الله تعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده».

ثم وجَّهه بقوله: «فكأنه قال: كل هذه كان الإنسان عنه مسؤولًا، أي: عما حصل لهؤلاء من الإدراكات، ووقع منها من الخطايا، فالتقدير: عن أعمالها مسؤولًا.

فهو على حذف مضاف».

وعن شَكَلِ بن حُمَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، عَلِّمْني دُعاءً، قال: قل: اللهُمَّ إنِّي أعوذُ بك مِن شَرِّ سَمعي، ومِن شَرِّ بَصَري، ومِن شَرِّ لِساني، ومِن شَرِّ قَلبي، ومِن شَرِّ مَنِيِّي)).[94]

وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37).

وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا.

أي: ولا تَمْشِ في الأرضِ مُختالًا مُتبَختِرًا مُتمايلًا مُتَكبِّرًا، كمِشيةِ الجبَّارينَ.[95]

---

(94) أخرجه أبو داود (1551) واللفظ له، والترمذي (3492)، والنسائي (5444)، وأحمد (15541).
قال الترمذيُّ: (حسَنٌ غريبٌ لا نعرِفُه إلَّا مِن هذا الوجهِ)، وحَسَّنه ابنُ حَجَرٍ في ((الإمتاع)) (187/1)، وصَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (1551).

(95) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (597/14)، ((تفسير ابن كثير)) (75/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 457).
قال القرطبي: (قولُه تعالى: وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا هذا نهيٌ عن الخيلاء وأمرٌ بالتواضعِ.
والمَرَحُ: شِدَّةُ الفرحِ.
وقيل: التكبُّرُ في المشي.
وقيل: تجاوزُ الإنسانِ قَدْرَه.
وقال قتادة: هو الخُيَلاءُ في المشي.
وقيل: هو البطَرُ والأشَرُ.
وقيل: هو النشاطُ.
وهذه الأقوال متقاربةٌ، ولكنها منقسمةٌ قسمين: أحدُهما مذمومٌ، والآخر محمود، فالتكبُّرُ والبطَرُ والخيلاء وتجاوزُ الإنسانِ قَدْرَه مذمومٌ، والفرَحُ والنشاط محمود).
((تفسير القرطبي)) (260/10).
وقال ابن عاشور: (تأويلُه [أي: لفظ مَرَحًا] باسمِ الفاعل، أي: لا تمش مارِحًا، أي: مِشيةَ المارح، وهي المشيةُ الدالَّةُ على كبرياء الماشي بتمايُلٍ وتبختُرٍ.
ويجوز أن يكون مَرَحًا مفعولًا مُطلقًا مبيِّنًا لفعل تَمْشِ؛ لأنَّ للمشيِ أنواعًا، منها: ما يدلُّ على أنَّ صاحِبَه ذو مرح...
والمشي مرحًا: أن يكون في المشيِ شِدَّةُ وطءٍ على الأرضِ وتطاولٌ في بدَنِ الماشي).

إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا.

أي: إنَّك -أيُّها المُتكَبِّرُ المُتعاظِمُ في مَشْيِه- لن تَثقُبَ الأرضَ بشِدَّة وطْءِ قَدَميك عند اختيالِك في مَشْيِك، ولن يَبلُغَ طُولُك -بتطاوُلِ بَدَنِك للأعلى في مِشيَتِك- طُولَ الجِبالِ؛ فما الذي يُغريك بهذه المِشيةِ، وقُدرتُك لا تَبلُغُ بك هذا المَبلغَ؟! فتواضَعْ ولا تتكَبَّرْ، واعرِفْ قَدْرَ ضَعْفِك وعَجْزِك؛ فأنت محصورٌ بين جمادَينِ لا تَقدِرُ على التَّأثيرِ فيهما؛ الأرضِ التي تحتَك، والجِبالِ الشَّامِخةِ مِن فَوقِك!

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((بينما رجُلٌ يَتبختَرُ،[96] يمشي في بُرْدَيه،[97] قد أعجَبَتْه نفسُه، فخَسَفَ اللهُ بِهِ الأرضَ، فهو يتجلجَلُ[98] فيها إلى يومِ القيامةِ)).[99]

كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (38).

---

((تفسير ابن عاشور)) (15/103).

وقال الشنقيطي: (أصلُ المرحِ في اللغة: شِدَّةُ الفرَحِ والنشاط، وإطلاقُه على مشي الإنسان متبخترًا مشْيَ المتكَبِّرين؛ لأنَّ ذلك من لوازِمِ شِدَّةِ الفرح والنشاط عادةً).

((أضواء البيان)) (3/156).

(96) يَتبختَرُ: أي: يمشي خُيَلاءَ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (7/2978).

(97) بُرْدَيه: واحِدُه بُرْدٌ: وهو كِساءٌ مُخطَّطٌ أو مُوشًّى يُلتحَفُ به.

يُنظر: ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (1/185).

(98) يتجلجَلُ: أي: يغوصُ ويَذهَبُ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (7/2978).

(99) رواه البخاري (5789)، ومسلم (2088) واللفظ له.

أي: جميعُ ما ذُكِرَ في الآياتِ السَّابقةِ مِن الأوامِرِ والنَّواهي، كان سَيِّئُه -وهو ما نَهَى اللهُ عنه- قَبيحًا مُبغَضًا عندَ رَبِّك الذي أحسَنَ إليك إحسانًا لا ينبغي أن يُقابَل عليه إلَّا بالشُّكرِ -يا مُحَمَّدُ.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: سَيِّئُهُ قِراءتانِ:

1- قِراءةُ سَيِّئُهُ على أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى جميعِ ما سَبَق ذِكرُه مِن المأموراتِ والمَنهيَّاتِ التي تقَدَّمَ ذِكرُها في الآياتِ السَّابقةِ، والسَّيِّئُ منه: هو المنهيَّاتُ فقط.[100]

2- قِراءةُ سَيِّئَةً على أنَّ المرادَ جَميعُ ما نهى اللهُ عنه مِمَّا تقَدَّمَ ذِكرُه في الآياتِ السَّابِقةِ.[101]

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (39).

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ.

---

(100) قرأ بها الكوفيون وابنُ عامر.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (307/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (95/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 403)، ((الكشف)) لمكي (47/2).

(101) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (307/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (95/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 403)، ((الكشف)) لمكي (47/2).

أي: هذه الأحكامُ والأوامِرُ والنَّواهي التي تَضَمَّنَتْها الآياتُ السَّابقةُ، مِمَّا أوحَى إليك ربُّك –يا مُحَمَّدُ– مِنَ الحِكمةِ ؛ لِتَعمَلَ بها، وتدعُوَ النَّاسَ إليها.

كما قال تعالى: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا [البقرة: 269].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((إنَّما بُعِثتُ لأُتَمِّمَ صالِحَ الأخلاقِ)).[102]

---

(102) أخرجه أحمد (8952)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (273)، والحاكم (4221).
صحَّحه ابنُ عبد البَرِّ في ((التمهيد)) (24/333)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (8/191): (رجالُه رِجالُ الصَّحيحِ)، وصحَّحه ابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (7/152)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (2349).

وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا.

أي: ولا تجعَلْ مع اللهِ مَعبودًا غيرَه، فتُرمَى في جهنَّمَ مَلومًا؛ تلومُك نَفسُك، ويَلومُك الخَلقُ، مُبعَدًا مَطرودًا مِن رَحمتِه سُبحانَه.(103)

---

(103) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (601/14)، ((تفسير القرطبي)) (264/10)، ((تفسير ابن كثير)) (77/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 458)، ((تفسير ابن عاشور)) (106/15).

قال ابنُ عطية: (الخطاب للنبي عليه السلام، والمرادُ كلُّ مَن سمِع الآيةَ مِن البشرِ).

((تفسير ابن عطية)) (458/3).

وقال ابنُ كثير: (والمرادُ مِن هذا الخِطابِ الأُمَّةُ بواسِطةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّه -صَلَواتُ اللهِ وسلامُه عليه- مَعصومٌ).

((تفسير ابن كثير)) (77/5).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (106/15).

## سورةُ الإسراءِ

### الآيات (40-44)

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40) وَلَقَدْ
صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (41) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ
إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (42) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (43)
تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا
تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (44)

## غريب الكلمات:

أَفَأَصْفَاكُمْ: أي: أَخْتَصَّكم، وأصلُ (صفو): يدُلُّ على خُلوصٍ، وتَناوُلِ صَفْوِ الشَّيءِ.

صَرَّفْنَا: أَيْ: بَيَّنَّا، والصَّرْفُ: ردُّ الشيءِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيرِه.

تَفْقَهُونَ: أي: تَفْهمون، ويُقالُ: فَقِهْتُ الكلامَ؛ إذا فهمتَه حقَّ فهمِه، والفقهُ: هو التوصلُ إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، وأصلُ (فقه): يدلُّ على إدراكِ الشيءِ، والعلمِ به.

## تفسير الآيات:

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40).

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا.

أي: أفخصَّكم ربُّكم -أيُّها المُشرِكونَ- بالذُّكورِ مِن الأولادِ، فلم يجعَلْ لِنَفسِه نَصيبًا منهم، وجعَلَ الملائِكةَ بَناتٍ له كما تَزعُمونَ، والحالُ أنَّكم لا تَرضَونَ البناتِ لأنفُسِكم؟! فهذا خِلافُ المَعقولِ والمَعهودِ المُتعارَفِ عليه؛ فإنَّ السَّادةَ لا يُؤثِرونَ عَبيدَهم بأفضَلِ الأشياءِ، ويتَّخِذونَ لأنفُسِهم أدْوَنَها![104]

كما قال تعالى: فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ [الصافات: 149-155].

---

(104) قال ابنُ كثير: (فجعَلوا الملائكةَ الذين هم عِبادُ الرَّحمنِ إناثًا، ثمَّ ادَّعَوا أنَّهم بناتُ الله، ثمَّ عَبَدوهم، فأخطؤوا في كُلِّ مِن المقاماتِ الثلاثِ خطأً عَظيمًا).

((تفسير ابن كثير)) (77/5).

ذكر ابنُ عطية (٥/ ٤٨٣) أن «قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ الآيةَ خطاب للعرب التي كانت تقول: الملائكة بنات الله».

ثم نقل قول قتادة: «أن هذه الآية نزلت في اليهود؛ لأنهم قالوا: الملائكة بنات الله -ولفظ الأثر المُثبَت عن قتادة: بنات الجنِّ».

ثم علَّق قائلًا: «والأول هو الذي عليه جمهور المفسرين».

وقال سُبحانَه: أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ [الطور: 39].

وقال عزَّ وجلَّ: أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى [النجم: 21، 22].

إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا.

أي: إنَّكم –أيُّها المُشرِكونَ– لَتَقولونَ على اللهِ قَولًا عَظيمًا، بافتِرائِكم أنَّ المَلائِكةَ بَناتُه.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (41).

أي: ولقد بَيَّنَّا ونوَّعْنا وأكثَرْنا في هذا القُرآنِ العِبَرَ والمواعِظَ، والحِكَمَ والأمثالَ، والحُجَجَ والأدِلَّةَ؛ ليَتَذَكَّروا ويتَّعِظوا، وما يزيدُ الظَّالِمينَ هذا التَّصريفُ والتَّذكيرُ بآياتِ القُرآنِ إلَّا ذَهابًا وهربًا من الحَقِّ، وتَباعُدًا عن الإيمانِ، وغفلةً عنِ النَّظَرِ والاعتبارِ.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا [الإسراء: 89].

وقال سُبحانَه: وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا [طه: 113].

وقال جلَّ جلالُه: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا [الإسراء: 82].

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (42).

أي: قل –يا مُحمَّدُ– لو كان مع اللهِ مَعبوداتٌ سِواه –كما يَزعُمُ المُشرِكونَ–، إذَنْ لَطَلَبَتْ تلك المَعبوداتُ المَزعومةُ التقرُّبَ إلى اللهِ، ونَيْلَ رِضاه بعبادتِه؛ لاعترافِهم بفَضلِه، وعِلْمِهم بقُدرتِه وعَجزِهم، فكيف تَعبُدونَهم مِن دُونِه والحالةُ هذه؟![105]

---

(105) واختُلِف في معنى: ﴿إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ في هذه الآية على قولين: الأول: لطلب هؤلاء الآلهة الزلفى إلى ذي العرش، والقربة إليه بطاعته.

الثاني: لابتَغَوْا إليه سبيلًا في إفساد مُلْكِه، ومُضاهاته في قدرته.

ووجَّه ابنُ عطية (٥/ ٤٨٤) القول الأول بقوله: «فيكون السبيل –على هذا التأويل– بمعناها في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]».

ووجَّه (٥/ ٤٨٥) القول الثاني بقوله: «وعلى هذا التأويل تكون الآية بيانًا للتمانع، وجاريةً مع قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]».

ورجَّح ابنُ تيمية (٤/ ٢١٧) مستندًا إلى القرآن، ودلالة ظاهر اللفظ، والدلالة العقلية القول الأول، فقال: «والأول هو الصحيح، فإنه قال: ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾، وهم لم يكونوا يقولون: إنّ آلهتهم تمانعه وتغالبه، بخلاف قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، فهذا في الآلهة المنفية، ليس فيه أنها تعلو على الله، وأن المشركين يقولون ذلك.

وأيضًا فقوله: ﴿لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ يدل على ذلك، فإنه قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]، والمراد به: اتخاذ السبيل إلى عبادته وطاعته، بخلاف العكس، فإنه قال: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٤٣]، ولم يقل: إليهن سبيلًا.

وأيضًا فاتخاذ السبيل إليه مأمور به، كقوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٦ – ٥٧].

فبين أن الذين يُدعَون من دون الله يطلبون إليه الوسيلة، فهذا مناسب لقوله: ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾».

كما قال تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ [الإسراء: 57].

وقال سُبحانه: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ [الفرقان: 17، 18].

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (43).

أي: تنزيهًا للهِ عمَّا لا يَليقُ بعظَمتِه، وتعالى عُلُوًّا كبيرًا عمَّا يقولُ المُشرِكونَ مِن الكَذِبِ عليه، كنِسبةِ الوَلَدِ والشَّريكِ إليه.

كما قال تعالى: سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ [الصافات: 180].

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (44).

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ.

أي: تُسَبِّحُ لله السَّمَواتُ السَّبعُ والأرضُ، ومَن فيهنَّ مِنَ المَلائِكةِ والإنسِ والجِنِّ وجميعِ المَخلوقاتِ، فتُنزِّهُه عمَّا لا يليقُ به.

كما قال تعالى: تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا [مريم: 90 – 95].

وقال سُبحانَه: تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ [الشورى: 5].

وقال جلّ جلالُه: يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [التغابن: 1].

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ.

أي: وما مِن شَيءٍ من المَخلوقاتِ إلَّا يُسبِّحُ بِحَمْدِ الله تعالى، فيُنَزِّهُه تنزيهًا مَقرونًا بوَصفه بصِفاتِ الكَمالِ مع محبَّتِه وتعظيمِه عزَّ وجلَّ.

كما قال تعالى: وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ [الرعد: 13].

وقال سُبحانَه: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ [النور: 41].

وقال عزَّ وجلَّ: وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ [الأنبياء: 79].

وقال تبارك وتعالى: وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ [البقرة: 74].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعتُ رسولَ اللهِ - ﷺ - يقولُ: ((قَرَصَت نملةٌ نبيًّا مِنَ الأنبياءِ، فأمَرَ بقَريةِ النَّملِ فأُحرِقَتْ، فأوحى اللهُ إليه: أنْ قَرَصَتْك نملةٌ أحرَقْتَ أمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسبّحُ؟!)).(106)

وعن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا مع رَسولِ اللهِ - ﷺ - في سَفَرٍ، فقَلَّ الماءُ، فقال: اطلُبوا فَضْلَةً مِن ماءٍ، فجاؤوا بإناءٍ فيه ماءٌ قَليلٌ، فأدخَلَ يَدَه في الإناءِ، ثمَّ قال: حَيَّ على الطَّهورِ المُبارَكِ، والبَرَكةُ مِنَ اللهِ. فلقد رأيتُ الماءَ يَنبُعُ مِن بَينِ أصابعِ رَسولِ اللهِ - ﷺ -، ولقد كُنَّا نَسمَعُ تَسبيحَ الطَّعامِ وهو يُؤكَلُ!)).(107)

وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ.

أي: ولكن لا تعلَمونَ -أيُّها النَّاسُ- تَسبيحَ المَخلوقاتِ؛ لأنَّها على غيرِ لُغَتِكم.(108)

---

(106) رواه البخاري (3019) واللفظ له، ومسلم (2241).

(107) رواه البخاري (3579).

(108) اختُلِف في التسبيح في قوله تعالى: ﴿وإنْ مِن شَيْءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ على أقوال: الأول: قوله تعالى: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ لفظ عموم، ومعناه الخصوص في كلّ حيّ ونام، وليس ذلك في الجمادات البحتة.

الثاني: هذا التسبيح حقيقة، وكل شيءٍ على العموم يُسَبّح تسبيحًا لا يسمعه البشر ولا يفقهونه.

ورجّح ابنُ تيمية (٤/ ٢٢٠) القول الثاني، فقال: «والصواب أنّ لها تسبيحًا وسجودًا بحسبها».

ولم يذكر مستندًا.

إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا.

أي: إنَّ اللهَ كان حَليمًا، فلا يُعاجِلُ بالعُقوبةِ مَن يكفُرُ به ويَعصِيه، غفورًا لِمَن تابَ مِن عِبادِه، فيَستُرُ ذُنوبَهم، ويتَجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها.

كما قال تعالى: وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا [فاطر: 45].

وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله – ﷺ –: ((إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالِمِ حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثمَّ قرأ: وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [هود: 102])).(109)

---

وعلَّق ابنُ كثير (٩/ ١٩) على القول الثاني بقوله: «ويشهد لهذا القول آية السجدة في أول الحج».

وزاد ابنُ عطية (٥/ ٤٨٦) قولًا ثالثًا عن فرقة: أن هذا التسبيح «تجوُّز، ومعناه: أن كل شيء تبدو فيه صنعة الصانع الدّالَّة عليه، فتدعو رؤية ذلك إلى التسبيح من المُعتبِر».

ثم علَّق عليه بقوله: «ومِن حجة هذا التأويل قوله تعالى: ﴿إِنّا سَخَّرْنا الجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ﴾ [ص: ١٨]».

واعترض أصحاب القول الثاني على هذا القول بقولهم: «ولو كان التسبيح ما قاله الآخرون من أنّه أثر الصنعة لكان أمرًا مفهومًا، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يُفْقَه».

وعلَّق ابنُ عطية على اعتراضهم بقوله: «وينفصل عن هذا الاعتراض بأن يريد بقوله سبحانه: ﴿لا تَفْقَهُونَ﴾ الكفار والغَفَلة، أي: أنهم يُعرِضون عن الاعتبار؛ فلا يفقهون حكمة الله –تبارك وتعالى– في الأشياء».

(109) رواه البخاري (4686) واللفظ له، ومسلم (2583).

## سورةُ الإسراءِ

### الآيات (45-48)

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (46) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (47) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (48)

## غريب الكلمات:

حِجَابًا: أي: سِتْرًا، أو طَبْعًا، وأصلُ (حجب): يدُلُّ على المَنعِ.

أَكِنَّةً: أي: أَغطِيةً، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ.

وَقْرًا: أي: ثِقَلًا وصَمَمًا، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقَلٍ في الشَّيءِ.

نَجْوَى: أي: مُتناجُونَ، يُسَارُّ بَعضُهم بَعضًا، وأصلُ (نجو): يدُلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ.

الْأَمْثَالَ: أي: الأشباهَ، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ.

## تفسير الآيات:

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45).

أي: وإذا شَرَعْتَ -يا محمَّدُ- في قراءةِ القُرآنِ، فسَمِعَه مُشرِكو قَومِك، الذين لا يُصَدِّقونَ بالبَعثِ، ولا يُقِرُّون بالثَّوابِ والعِقابِ؛ جَعَلْنا بينك وبينَهم حجابًا مَستورًا عن الأعيُنِ، لا يُرى، يَمنَعُهم مِن فَهمِ القُرآنِ وتدَبُّرِه والانتفاعِ به، ويحولُ بينَهم وبينَ الإيمانِ به.

كما قال سُبحانَه: وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ [فصلت: 5].

وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (46).

وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ.

أي: وجَعَلْنا على قُلوبِ هؤلاءِ الذينَ لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ أغشِيةً وأغطِيةً تَحجُبُها؛ كراهةَ أنْ يَفهَموا معانيَ القُرآنِ فَهمًا ينتَفِعونَ به.

كما قال تعالى: إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا [الكهف: 57].

وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا.

أي: وجعَلْنا في آذانِ المُشرِكين صَمَمًا وثِقَلًا يمنَعُهم مِن سَماعِ القُرآنِ سَماعَ قَبولٍ له، وانتِفاعٍ به.

كما قال تعالى: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ [فصلت: 44].

وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا.

أي: وإذا وحَّدْتَ ربَّك –يا محُمَّدُ– في تِلاوَتِك للقُرآنِ، فقُلتَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنت تَتلوه؛ أعرَضَ المُشرِكونَ عنك، نافرينَ مُستَكبرينَ عن توحيدِ اللهِ؛ مِن شِدَّةِ كَراهِيَتِهم لهذا الحَقِّ، ومحَبَّتِهم لِما هم عليه مِنَ الباطِلِ.(110)

---

(110) نقل ابنُ عطية (٥/ ٤٨٧ – ٤٨٨) عن بعض العلماء قولهم: «إنّ ملأ قريش دخلوا على أبي طالب يزورونه، فدخل عليهم رسول الله – ﷺ –، فقرأ ومرَّ بالتوحيد، قال: «يا معشر قريش، قولوا: لا إله إلا الله.
تملكون بها العرب، وتدين لكم العجم».
فوَلَّوْا ونَفَرُوا؛ فنزلت هذه الآية».
ثم رجَّح مستندًا إلى دلالة اللفظ أن الآية: «وصف لحال الفارِّين عنه في وقت توحيده في قراءته أبْيَن وأجرى مع اللَّفظ».
اختُلِف في المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿ولَّوْا عَلى أدْبارِهِمْ نُفُورًا﴾ في هذه الآية على قولين: الأول: أنهم المشركون.
الثاني: أنهم الشياطين.
ورجَّح ابنُ جرير (١٤/ ٦١٠ – ٦١١) مستندًا إلى دلالة السياق القول الأول، وهو قول قتادة، وابن زيد، ومقاتل، ويحيى بن سلام، وعلَّل ذلك بقوله: «وذلك أن الله –تعالى ذِكْره– أتبع ذلك قوله: ﴿وإذا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجابًا مَسْتُورًا﴾، فأن يكون ذلك خبرًا عنهم أوْلى –إذ كان بخبرهم متصلًا– من أن يكون خبرًا عمَّن لم يجْرِ له ذكرٌ».

كما قال تعالى: وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [الزمر: 45].

وقال سُبحانَه: ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ [غافر: 12].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ [الصافات: 35].

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (47).

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ.

أي: نحن أعلَمُ -يا مُحمَّدُ- باستِهزاءِ المُشركِينَ واستِخفافِهم بالقُرآنِ، وتَكذيبِهم به وَقتَ استِماعِهم إليك وأنت تَتلُوه.

كما قال تعالى: مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ [الأنبياء: 2-3].

---

ووجَّه ابنُ عطية (٥/ ٤٨٨) القول الثاني بقوله: «يريد: أن المعنى يدل عليهم، وإن لم يَجْرِ لهم ذِكْرٌ في اللفظ، وهذا نظير قول النبي -ﷺ-: «إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان له حصاصٌ»».

وعلَّق عليه ابنُ كثير (٩/ ٢٣) بقوله: «وهذا غريب جدًّا في تفسيرها، وإلا فالشياطين إذا قرئ القرآن أو نودي بالأذان أو ذكر الله انصرفوا».

وَإِذْ هُمْ نَجْوَى.

أي: ونحنُ أعلَمُ –يا مُحَمَّدُ– بما يتناجَى به مُشرِكو قَومِك في أمْرِك، ويُسَارُّ بَعضُهم بَعضًا بشأنِك.

كما قال تعالى: وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ [الأنبياء: 3 – 5].

إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا.

أي: حينَ يقولُ المُشرِكونَ وهم يَتناجَونَ فيما بينَهم: ما تتَّبِعونَ –إنِ اتَّبَعتُم مُحَمَّدًا– إلَّا رَجُلًا مَغلوبًا على عَقلِه بالسِّحرِ، يَهذِي بكَلامٍ، ولا يَدري ما يقولُ!![111]

(111) نقل ابنُ جرير (١٤/ ٦١٢) عن بعض أهل العربية في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إلا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ أن المعنى: «ما تتَّبعون إلا رجلًا له سَحْرٌ، أي: له رِئَةٌ، والعرب تسمِّي الرِّئَة سَحْرًا، والسَّحْرُ من قولهم للرجل إذا جبُن: قد انتفخ سَحْرُه.
وكذلك يقال لكلِّ ما أكَل أو شرِب من آدميّ وغيره: مسحورٌ، ومُسَحَّرٌ ...
فكأن معناه عنده كان: إن تتَّبعون إلا رجلًا له رِئَةٌ، يأكل الطعام، ويشرب الشَّراب، لا مَلَكًا لا حاجة به إلى الطعام والشراب».
ثم علَّق عليه بقوله: «والذي قال من ذلك غيرُ بعيدٍ من الصواب».
وذكر ابنُ عطية (٥/ ٤٨٩) أن قوله تعالى: ﴿مَسْحُورًا﴾ «الظاهر فيه أن يكون من السِّحْر، فشبَّهوا الخبال الذي عنده بزعمهم، وأقواله الوخيمة برأيهم، بما يكون من المسحور الذي قد خبل السِّحْر عقله، وأفسد كلامه».
ثم وجَّهه بقوله: «وتكون الآية –على هذا– شبيهة بقول بعضهم: بِهِ جِنَّةٌ.
ونحو هذا».
ونقل عن أبي عبيدة أن ﴿مَسْحُورًا﴾ معناه: ذا سَحْر، وهي الرئة، ثم وجَّهه بقوله: «فكأن مقصد الكفار بهذا التشبيه على أنه بشر».

كما قال تعالى: وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا [الفرقان: 8].

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (48).

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ.

أي: انظُرْ -يا مُحَمَّدُ- مُتعَجِّبًا كيف مثَّلَ لك المُشرِكونَ الأمثالَ الباطِلةَ، وشبَّهوا لك الأشباهَ، فشَبَّهوك بالمسحورِ، وقالوا عنك: شاعِرٌ، مجنونٌ، ساحِرٌ، كذَّابٌ!

كما قال تعالى: بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ [الأنبياء: 5].

وقال تبارك وتعالى: وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ [الصافات: 36].

---

ثم رجَّح القول الأول مستندًا إلى الدلالة العقلية أنه من السِّحْر قائلًا: «والآية التي بعد هذا تُقَوِّي أن اللفظة التي في الآية من السِّحْر -بكسر السين-، لأن (في هذا الموضع بياضًا في جميع أصول تفسير ابن عطية كما ذكر محقّقوه؛ ولعل الكلمة القريبة: ﴿مسحورًا﴾) حينئذ في قولهم ضَرْبُ مَثَل له، وأما على أنها من السَّحْر الذي هو الرِّئة، ومن التَّغَذِّي، وأن تكون الإشارة إلى أنه بشر؛ فلم يُضرب له في ذلك مثل، بل هو صفة حقيقة له».

وانتقد ابنُ كثير (٩/ ٢٤) تصويب ابن جرير لقول من قال: إنه مِن السَّحْر.

قائلًا: «وفيه نظر؛ لأنهم أرادوا هاهنا أنه مسحور له رَئِيٌّ يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه، ومنهم مَن قال: شاعر.

ومنهم من قال: كاهن.

ومنهم من قال: مجنون.

ومنهم من قال: ساحر.

ولهذا قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا﴾، أي: فلا يهتدون إلى الحق، ولا يجدون إليه مخلصًا».

وقال عزَّ مِن قائلٍ: ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ [الدخان: 14].

وقال سُبحانَه: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [الفرقان: 4- 5].

وقال جلَّ جلالُه: وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ [ص: 4].

فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا.

أي: فَضَلَّ المُشرِكونَ عن طريقِ الحقِّ بضَربِ الأمثالِ الباطِلةِ المُتناقِضةِ لك -يا مُحَمَّدُ- وتَحيَّروا فلم يَقدِروا أن يَسلُكوا طَريقًا يُخرِجُهم مِن هذا الضَّلالِ، ويُوصِلُهم إلى الحقِّ.(112)

---

(112) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٤٩٠) في معنى الآية احتمالين: «أحدهما: لا يســتطيعون ســبيلًا إلى الهدى، والنظر المؤدي إلى الإيمان».

ثم وجَّهه بقوله: «فتجري الآية مجرى قوله تعالى: ﴿وجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أكِنَّةً﴾ [الإسراء: ٤٦]، ونحو هذا».

«والآخر: لا يستطيعون سبيلًا إلى إفساد أمرك، وإطفاء نور الله بِضَرْبِهم الأمثال لك، واتباعهم كل حيلة في جهتك».

## سورةُ الإسراءِ

### الآيات (49-52)

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا
(50) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ
فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (52)

## غريب الكلمات:

وَرُفَاتًا: أي: تُرابًا وفُتاتًا، وأصلُ (رفت): يدُلُّ على فَتٍّ.

يَكْبُرُ: أي: يَعْظُمُ، يقال: كَبُرَ الأمرُ والشيءُ: إذا عظُم، وأصلُ (كبر): يدلُّ على خلافِ الصغرِ.

فَسَيُنْغِضُونَ: أي: يُحَرِّكونَ رُؤوسَهم تكذيبًا واستِهزاءً، والإنغاضُ: تحريكُ الرَّأسِ نحوَ الغيرِ كالمتعجِّبِ منه، وأصلُ (نغض): يدُلُّ على هَزٍّ وتَحريكٍ.

## تفسير الآيات:

**وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49).**

أي: وقال هؤلاءِ المُشرِكونَ الذين لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ إنكارًا للبَعثِ يومَ القيامةِ: أئِذا صِرْنا عِظامًا وتُرابًا، وقد بَلِيَت أجسادُنا في قُبورِنا، فهل يَبعَثُنا اللهُ أحياءً مِن جديدٍ كما كنَّا قبل مَوتِنا؟! هذا أمرٌ مُحالٌ لا يُمكِنُ وُقوعُه.

كما قال تعالى: يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً [النازعات: 10، 11].

وقال سُبحانَه: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس: 78- 79].

**قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50).**

أي: قلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُنكِرينَ للبَعثِ بعد المَوتِ: إنْ كُنتُم تَعجَبونَ مِن قُدرةِ اللهِ على إحيائِكم، فكُونوا -إن استطعتُم- حِجارةً أو حديدًا؛ فسيَبعَثُكم أيضًا.(113)

---

(113) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٤٩١ - ٤٩٢) اســتدلال المتكلمين بهذه الآية على التعجيز، فقال: «وقوله: ﴿كونوا﴾ هو الذي يسميه المتكلمون: التعجيز، من أنواع لفظة» افعل «، وبهذه الآية مثّل بعضهم».

ثم انتقد اســتدلالهم مســتندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «وفي هذا عندي نظر، وإنما التعجيز حيث يقضــي بالأمر فعلُ ما لا يقدر عليه المخاطَب، كقوله تعالى: ﴿فادرءوا عن أنفســـكم الموت﴾ [آل عمران: ١٦٨] ونحوه، وأما هذه الآية فمعناها: كونوا بالتوهم والتقدير كذا وكذا، الذي فطركم كذلك هو يعيدكم».

أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (51).

أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ.

أي: أو كُونوا -أيُّها المُنكِرونَ للبَعثِ- خَلْقًا مِمَّا يَعظُمُ في نُفوسِكم -إنِ استَطعتُم- مِمَّا تَستبعِدونَ معه قُدرةَ اللهِ على إحيائِكم؛ فاعلَمُوا أنَّه لا بُدَّ مِن بَعثِكم على أيِّ خِلقةٍ كنتُم، مهما بلَغَت مِنَ القوَّةِ والشِّدَّةِ.(114)

فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا.

أي: فسيَقولُ المُنكِرونَ للبَعثِ: مَن يَبعَثُنا بعدَ مَوتِنا إنْ كُنَّا حِجارةً أو حديدًا أو خَلقًا مِمَّا يَكبُرُ في صُدورِنا؟!

---

(114) اختلف السلف فيما عنى الله بقوله: ﴿أو خلقا مما يكبر في صدوركم﴾ على أقوال: الأول: أنه الموت.

الثاني: أنه السماء والأرض والجبال.

الثالث: أن معناه: كونوا ما شئتم.

وقد رجَّح ابنُ جرير (١٤/ ٦١٩) جوازَ تلك الأقوال لعدم المُخصّص، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله -تعالى ذِكْرُه- قال: ﴿أو خلقا مما يكبر في صدوركم﴾، وجائز أن يكون عنى به: الموت؛ لأنه عظيم في صدور بني آدم، وجائز أن يكون أراد به: السماء والأرض، وجائز أن يكون أراد به غير ذلك، ولا بيان في ذلك أبين مما بَيَّن -جلَّ ثناؤه- وهو كل ما كبر في صدور بني آدم مِن خلقه؛ لأنه لم يخصص منه شيئًا دون شيء».

ورجَّح ابنُ عطية (٣/ ٤٦٢ ط: دار الكتب العلمية) مستندًا إلى الدلالة العقلية القول الثالث، ونسب ترجيحه لابن جرير، فقال: «ورجحه الطبري، وهذا هو الأصح؛ لأنه بدأ بشيء صلب، ثم تدرج القول إلى أقوى منه، ثم أحال على فكرهم إن شاؤوا في أشد من الحديد، فلا وجه لتخصيص شيء دون شيء».

قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

أي: قُلْ لهم– يا مُحمَّدُ: سيُعيدُكم اللهُ الذي ابتدأَ خَلقَكم أوَّلَ مرَّةٍ مِن العَدَمِ على غيرِ مِثالٍ سبَقَ؛ فالذي قدَرَ على البُداءةِ قادِرٌ على الإعادةِ.

كما قال تعالى: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ [الأنبياء: 104].

وقال سُبحانَه: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ [الروم: 27].

فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ.

أي: فإذا أجبتَهم بذلك –يا مُحمَّدُ– فسيُحَرِّكونَ إليك رُؤوسَهم برَفعٍ وخَفضٍ؛ استهزاءً منهم.

كما قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ [سبأ: 7].

وقال سُبحانَه: فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ [ق: 2، 3].

وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ.

أي: ويقولُ هؤلاء المُنكِرونَ للبَعثِ تعنُّتًا واستِبعادًا منهم لوُقوعِه: متى يقَعُ هذا البَعثُ الذي تَزعُمُه؟

كما قال سُبحانَه: قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ * قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ [الملك: 23 – 26].

قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا.

أي: قل لهم–يا مُحَمَّدُ–: هو قريبٌ، سيأتيكم لا مَحالةَ؛ فاحذَروا ذلك.

كما قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ [الشورى: 17– 18].

وقال سُبحانَه: يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا [الأحزاب: 63].

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (52).

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ.

أي: وذلك البَعثُ الذي تُنكِرونَه -أيُّها المُشرِكونَ- واقِعٌ يومَ يَدعوكم ربُّكم للحِسابِ والجَزاءِ يومَ القيامةِ، فتَستَجيبونَ كُلُّكم لله بالخُروجِ فورًا مِن قُبورِكم أحياءً، وتَنقادونَ لِدَعوتِه بحَمدِه.(115)

كما قال تعالى: ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ [الروم: 25].

وقال سُبحانَه: وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ [ق: 41 – 44].

---

(115) اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿فتستجيبون بحمده﴾ على أقوال: الأول: بأمره.

الثاني: بمعرفته وطاعته.

الثالث: هو قولهم: سبحانك اللهم وبحمدك.

وقد ذكر ابنُ جرير (١٤/ ٦٢٢) القول الأول والثاني، ثم رجّح أنّ ذلك معناه: «فتستجيبون لله مِن قبوركم بقدرته، ودعائه إياكم، ولله الحمد في كل حال، كما يقول القائل: فعلت ذلك الفعل بحمد الله.

يعني: لله الحمد عن كل ما فعلته».

وعلق ابنُ عطية (٥/ ٤٩٣ – ٤٩٤) على القول الأول والثاني، فقال: «وهذا كله تفسير لا يعطيه اللفظ، ولا شكَّ أن جميع ذلك بأمر الله تعالى».

ثم بيّن احتمال الآية وجهين، فقال: «وإنما معنى: ﴿بحمده﴾ إما أن جميع العالمين -كما قال ابن جبير- يقومون وهم يحمدون الله ويمجدونه لما يظهر لهم من قدرته، وإما أن قوله: ﴿بحمده﴾ هو كما تقول لرجل إذا خاصمته أو حاورته في علم: قد أخطأت بحمد الله.

وكأن النبي - ﷺ - يقول لهم في هذه الآيات: عسى أن الساعة قريبة يوم تدعون فتقومون، بخلاف ما تعتقدون الآن، وذلك بحمد الله تعالى على صدق خبري.

نحا هذا النحو الطبري، ولم يُلخِّصه».

وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا.

أي: وتَظُنُّونَ[116] -أيُّها النَّاسُ- حين تُبعَثونَ يومَ القيامةِ أنَّكم لم تمكُثوا في الدنيا[117] إلَّا وَقتًا يَسيرًا.

---

(116) قال ابن عطية: (قَولُه تعالى: وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا يحتمل معنيين: أحدُهما: أنه أخبر أنَّهم لما رجَعوا إلى حالة الحياة، وتصرُّف الأجساد، وقع لهم ظنٌّ أنهم لم ينفصلوا عن حال الدنيا إلَّا قليلًا لمغيبِ علمِ مقدار الزمنِ عنهم؛ إذ مَن في الآخرةِ لا يقدِّرُ زمن الدنيا؛ إذ هم لا محالة أشَدُّ مفارقةً لها من النائمين، وعلى هذا التأويلِ عَوَّل الطبري، واحتج بقولِه تعالى: كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ [المؤمنون: 112، 113].
والآخر: أن يكون الظنُّ بمعنى اليقين، فكأنَّه قال لهم: يوم تُدعَون فتستجيبون بحمدِ الله، وتتيقَّنون أنَّكم إنَّما لَبِثْتم قليلًا، من حيث هو مُنقَضٍ منحَسِرٌ، وهذا كما يقال في الدنيا بأسرِها: متاعٌ قليل، فكأنَّه قِلَّة قَدرٍ، على أن الظنَّ بمعنى اليقين يقلق هاهنا؛ لأنَّه في شيء قد وقع، وإنما يجيءُ الظن بمعنى اليقين فيما لم يخرُجْ بعدُ إلى الكون والوجود).
((تفسير ابن عطية)) (3/463).
ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (3/30).

(117) ممَّن قال بأنَّ المرادَ لُبثُهم في الدنيا: ابنُ أبي زمنين، والسمعاني، والزمخشري، والرسعني، وابنُ كثير، والعليمي، والشنقيطي.
يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (3/214)، ((تفسير السمعاني)) (3/494)، ((تفسير الزمخشري)) (2/672)، ((تفسير الرسعني)) (4/184)، ((تفسير ابن كثير)) (5/86)، ((تفسير العليمي)) (4/498)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (5/362).
قال ابن جرير: (وقولُه: وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا يقول: وتحسَبون عند موافاتِكم القيامةَ مِن هولِ ما تعاينون فيها ما لَبِثتم في الأرض إلا قليلًا؛ كما قال جل ثناؤه: قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ [المؤمنون: 112، 113].
وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل...
عن قتادة، وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا أي: في الدنيا، تحاقَرت الدنيا في أنفُسِهم وقَلَّت حين عاينوا يومَ القيامة).
((تفسير ابن جرير)) (14/623).
وقال ابن الجوزي: (أين يظنُّون أنَّهم لبثوا قليلًا؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدُها: بين النفختينِ، ومقداره أربعون سنة، ينقَطِعُ في ذلك العذابُ عنهم، فيرون لُبثَهم في زمان الراحةِ قليلًا، رواه أبو صالح عن ابن عباس.
والثاني: في الدُّنيا؛ لعِلمِهم بطول اللُّبثِ في الآخرة، قاله الحسن.
والثالث: في القبورِ، قاله مقاتل).

كما قال تعالى: قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [المؤمنون: 112 – 114].

وقال سُبحانَه: يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا [طه: 102 – 104].

وقال عزَّ وجلَّ: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [الروم: 55– 56].

وقال جلَّ جلالُه: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا [النازعات: 46].

---

((تفسير ابن الجوزي)) (30/3).

وممن اختار أنَّ المرادَ لبثُهم في القبورِ: مقاتل بن سليمان، والبقاعي، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (535/2)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (440/11)، ((تفسير الشوكاني)) (279/3).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: مدةُ لبثِهم بينَ النفختينِ: القرطبي.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (276/10).

# سورةُ الإسراءِ

## الآيات (53-57)

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (53) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (54) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (55) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (57)

## غريب الكلمات:

**يَنْزَغُ**: أي: يُفسِدُ ويُهيّجُ، وأصلُ (نزغ): يدلُّ على إفسادٍ بينَ اثنينِ.

**الْوَسِيلَةَ**: أي: المَنزِلةَ والقُربةَ بالأعمالِ الصَّالحةِ، وأصلُ (وسل): يدُلُّ على التَّوصُّلِ إلى الشَّيءِ برَغبةٍ.

## تفسير الآيات:

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (53).

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

أي: وقُلْ -يا مُحَمَّدُ- آمِرًا عبادي المؤمنينَ بأن يَقولَ بَعضُهم لِبَعضٍ في مُحاوراتِهم ومُخاطباتِهم الكَلامَ الأحسَنَ؛ مِن الكَلِماتِ الطَّيِّبةِ اللَّيِّنةِ اللَّطيفةِ، التي هي أحسَنُ مِمَّا سِواها.

قال تعالى: وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [فصلت: 34- 35].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((الكَلِمةُ الطَّيِّبةُ صَدَقةٌ)).(118)

إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ.

أي: قُلْ لهم يَقولوا التي هي أحسَنُ؛ لأنَّ الشَّيطانَ البَعيدَ مِن الرَّحمةِ وكُلِّ خَيرٍ يقومُ بالإفسادِ بينهم، وتَهييجِ العَداواتِ والشُّرورِ، مِن المُخاصَمةِ والمُقاتَلةِ وغَيرِ ذلك.(119)

---

(118) رواه البخاري (2891)، ومسلم (1009).

(119) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٤٩٥) هذا القول، ثم علّق عليه قائلًا: «ويلزم على هذا أن يكون قوله: ﴿لِعِبَادِي﴾ يريد به: جميع الخلق؛ لأن جميعهم مدعو إلى لا إله إلا الله، ويجيء قوله بعد ذلك: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ غير مناسب للمعنى، إلا على تكرُّه، بأن يجعل ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بمعنى: خلالهم وأثناءهم، ويجعل النزع بمعنى: الوسوسة والإضلال».

عن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ – ﷺ – يقولُ: ((إنَّ الشَّيطانَ قد أَيِسَ أن يَعبُدَه المصلُّونَ في جزيرةِ العَرَبِ، ولكِنْ في التَّحريشِ بينهم)).[120]

إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا.

أي: إنَّ الشَّيطانَ يَنزَغُ بينهم؛ لأنَّه كان لآدَمَ وذُرِّيَّتِه عَدُوًّا مُظهِرًا لشدَّةِ عَداوتِه، مِن حينِ امتِناعِه مِن السُّجودِ لآدَمَ وحَسَدِه له حتى أخرَجَه مِن الجنَّةِ.

كما قال تعالى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا [الكهف: 50].

وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((إنَّ إبليسَ يَضَعُ عَرشَه على الماءِ، ثمَّ يَبعَثُ سَراياه، فأدْناهم منه مَنزِلةً أعظَمُهم فِتنةً، يجيءُ أحَدُهم فيَقولُ: فعَلْتُ كذا وكذا، فيقولُ: ما صنعْتَ شَيئًا! قال: ثم يجيءُ أحَدُهم فيقولُ: ما تركْتُه حتى فَرَّقتُ بينه وبين امرأتِه، قال: فيُدنيه منه ويَقولُ: نِعْمَ أنتَ!!)).[121]

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (54).

---

(120) رواه مسلم (2812).

(121) رواه مسلم (2813).

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ.

أي: ربُّكم أعلَمُ بمَن يَستَحِقُّ منكم الرَّحمةَ والهِدايةَ، ومَن لا يَستَحِقُّها، إنْ يَشَأْ رَحْمَتَكم بأنْ يُوَفِّقَكم لأسبابِها، تَهْتَدوا، أو إنْ يَشَأْ تَعذيبَكم بأنْ يَخذُلَكم عن أسبابِ الرَّحمةِ، تَضِلُّوا.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا.

أي: وما أرسلناك -يا محمدُ- على مَن أرسلناك إليه؛ حافظًا وكفيلًا، فما وُكِلَ إليك إيمانُهم ولا مجازاتُهم، إنَّما أرْسَلناك إليهم؛ لتُبلِّغَهم رسالاتِنا، واللهُ تعالى إن شاء هداهم ورحِمهم، وإن شاء خَذَلهم وعذَّبهم.(122)

كما قال تعالى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [البقرة: 272].

وقال سُبحانَه: وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ [ق: 45].

وقال عزَّ وجلَّ: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ [الغاشية: 21- 22].

---

(122) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٤٩٥ – ٤٩٦) في الآية قولين: الأول: أنَّها أمر مِن الله تعالى المؤمنين فيما بينهم بحسن الأدب.

الثاني: أنها فيما بين المؤمنين والمشركين يأمرهم فيها بإلانة القول للمشركين بمكة أيام المهادنة.

ثم قوّى القول الثاني مستندًا للسياق، فقال: «وقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ الآية، هذه الآية تقوي أن التي قبلها هي ما بين العباد المؤمنين وكفار مكة، وذلك أن هذه المخاطبة في قوله: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ هي لكفار مكة، بدليل قوله: ﴿وما أرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وكِيلًا﴾، فكأن الله – عز وجل – أمر المؤمنين أن لا يخاشنوا الكفار في الدين، ثم قال للكفار إنه أعلم بهم، ورجاهم وخوفهم».

وذكر قول من قال: إن معنى قوله: ﴿يرحمكم﴾ بالتوبة عليكم من الكفر، وبيّن أن هذا أيضًا يقوي أن هذه المخاطبة فيما بين المؤمنين والكفار.

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (55).

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: وربُّك -يا مُحَمَّدُ- أعلَمُ بمَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ مِن خَلْقِه، فيَعلَمُ نِيَّاتِهم، وأحوالَهم وأعمالَهم، وآجالَهم، وما يُصلِحُهم، ويَعلَمُ مَن يَستَحِقُّ الرَّحمةَ منهم فيَهديه، ومَن يَستَحِقُّ منهم العَذابَ فيُضِلُّه ويُشقِيه، وذلك بحسَبِ ما تَقتَضيه حِكمَتُه سُبحانَه.

قال تعالى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ [الأنعام: 117].

وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ.

أي: ولقد فضَّلْنا بعضَ الأنبياءِ على بَعضٍ، كتَفضيلِهم بالعِلمِ والكُتُبِ، والشَّرائعِ والمُعجِزاتِ والخَصائِصِ.

كما قال تعالى: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ [البقرة: 253].

وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا.

أي: وأعطَيْنا نَبِيَّنا داوُدَ كِتابَ الزَّبورِ وفضَّلْناه به؛ فليس للمُكَذِّبينَ بمُحَمَّدٍ – ﷺ – أن يُنكِروا تَفضِيلَنا له بالنبُوَّةِ والقُرآنِ.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ [سبأ: 10].

وقال سُبحانَه: وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ [ص: 17–20].

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56).

أي: قُلْ –يا مُحَمَّدُ– للمُشرِكينَ: ادعُوا الذينَ زَعَمتُم أنَّهم آلهةٌ مِن دُونِ اللهِ عندَ حُلولِ الشَّدائِدِ بكم، فانظُروا هل يَقدِرونَ على أن يُزيلُوا الضُّرَّ عنكم بالكُلِّيَّةِ، أو يُحَوِّلوه مِن حالٍ إلى حالٍ، فيُغيِّروا صفتَه أو قدرَه، أو يُحَوِّلوه إلى غَيرِكم ؛ فإنَّهم لا يَقدِرونَ على ذلك، وإنَّما يَقدِرُ عليه اللهُ وَحدَه، فإذا كانوا بهذه الصِّفةِ فلأيِّ شَيءٍ تَدعونَهم مِن دُونِ اللهِ؟!

كما قال تعالى: قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ [الزمر: 38].

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (57).

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ.

أي: أولئك الذين يَزعُمُ المُشرِكونَ أنَّهم آلِهةٌ مِن دُونِ اللهِ، مِن المَلائِكةِ والأنبياءِ، والصَّالحينَ مِن الإنسِ والجِنِّ، هم أنفُسُهم يَطلُبُونَ التقَرُّبَ إلى اللهِ بطاعَتِه مِن الواجِباتِ والمُستَحَبَّاتِ، ويَدْعونَه ويَستَعيذونَ به وَحْدَه؛ فلماذا يَعبُدُهم المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ؟![123]

---

(123) اختلف السلف فيمن عنى الله بقوله: ﴿أولئك الذين يدعون﴾ على أقوال: الأول: أنهم نفر من الجن.

الثاني: أنهم الملائكة.

الثالث: أنهم عزير والمسيح وأمه.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٤/ ٦٣١ – ٦٣٢) مستندًا إلى الدلالة العقلية القول الأول، وبيَّن احتمال صوابَ القول الثاني، وانتقد الثالث، فقال: «وأولى الأقوال بتأويل هذه الآية قولُ عبد الله بن مسعود الذي رويناه عن أبي معمر عنه، وذلك أن الله –تعالى ذِكْرُه– أخبر عن الذين يدعوهم المشركون آلهة أنهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة في عهد النبي – ﷺ –، ومعلوم أنّ عزيرًا لم يكن موجودًا على عهد نبينا عليه الصلاة والسلام فيبتغي إلى ربه الوسيلة، وأن عيسى قد كان رفع، وإنما يبتغي إلى ربه الوسيلة مَن كان موجودًا حيًّا يعمل بطاعة الله، ويتقرب إليه بالصالح من الأعمال، فأما من كان لا سبيل له إلى العمل فبم يبتغي إلى ربه الوسيلة؟! فإذا كان لا معنى لهذا القول فلا قول في ذلك إلا قول مَن قال ما اخترنا فيه من التأويل، أو قول من قال: هم الملائكة.

وهما قولان يحتملهما ظاهر التنزيل».

وذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٠٠) قولًا عن ابن فورك وغيره «أن الكلام من قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾ راجع إلى النبيين المتقدم ذكرهم».

ثم علّق عليه قائلا: «ف ﴿يَدْعُونَ﴾ على هذا من الدعاء».

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه قال في قَولِه عزَّ وجلَّ: أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ قال: (كان نَفَرٌ مِنَ الجنِّ أسلَمُوا، وكانوا يُعبَدونَ، فبَقِيَ الذين كانوا يَعْبُدونَ على عِبادتِهم، وقد أسلَمَ النَّفَرُ مِن الجِنِّ).[124]

أَيُّهُمْ أَقْرَبُ.

أي: يَتنافَسونَ في عبادةِ اللهِ والاجتهادِ في طاعتِه مُنافَسةَ مَن يَطلُبُ أن يكونَ إليه أقرَبَ مِن الآخَرينَ.

وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ.

أي: ويَرجُونَ بعِبادتِهم اللهَ رَحمَتَه، فيَبذُلونَ ما يَقدِرونَ عليه مِن الأعمالِ الصَّالحةِ المُقَرِّبةِ إلى اللهِ تعالى وإلى رَحمتِه، ويخافونَ عَذابَه، فيَجتَنِبونَ كُلَّ ما يُوصِلُ إلى عذابِه، فكيف يَعبُدُهم المُشرِكونَ، وتلك هي حالُهم؟!

كما قال تعالى: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ [النحل: 49 - 50].

وقال سُبحانَه: إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ [الأنبياء: 90].

---

(124) رواه البخاري (4715)، ومسلم (3030) واللفظ له.

ثم علَّل خوفَهم بأمرٍ عامٍّ، فقال تعالى:

إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا.

أي: إنَّ عذابَ ربِّك –يا مُحمَّدُ– كان مُتَّقًى مَخُوفًا، لا أمانَ لأحدٍ منه؛ فمُلازَمةُ الحَذَرِ مِن الوُقوعِ في أسبابِه تنبغي لكُلِّ أحَدٍ مِن مَلَكٍ مُقرَّبٍ، ونَبيٍّ مُرسَلٍ، فضلًا عن غيرِهم.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ [المعارج: 27–28].

## سورةُ الإسراءِ

### الآيات (58–60)

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (58) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (59) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (60)

## غريب الكلمات:

مَسْطُورًا: أي: مَكتوبًا محفوظًا، وأصْلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ الشَّيءِ.

فِتْنَةً: أي: اختِبارًا وابتِلاءً، مِن الفَتنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه مِن رداءتِه.

طُغْيَانًا: أي: تماديًا وغَيًّا، والطُّغيانُ: مُجاوزةُ الحَدِّ في العِصيانِ.

## تفسير الآيات:

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (58).

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا.

أي: وما مِن قَريةٍ مِن القُرى إلَّا سنُهلِكُ أهلَها بعذابِ الاستِئصالِ قبلَ وُقوعِ يومِ القيامةِ، أو نعذِّبُهم عذابًا شَديدًا بتَسليطِ عَدُوٍّ عليهم، أو بإصابتِهم بالجُوعِ أو بالخَوفِ أو بالأمراضِ وغيرِها؛ وذلك بسَببِ كُفرِهم أو عِصيانِهم.

كما قال تعالى: وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ [الأنبياء: 11 – 15].

وقال سُبحانَه: وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ [القصص: 59].

وقال عزَّ وجلَّ: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا [الطلاق: 8، 9].

كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا.

أي: إنَّ هَلاكَ كُلِّ قَريةٍ أو تعذيبَها بعذابٍ شَديدٍ قبلَ يومِ القيامةِ أمرٌ مَكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، لا بُدَّ مِن وُقوعِه لا محالةَ.

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (59).

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ.

سبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((سأل أهلُ مكَّةَ النبيَّ – ﷺ – أن يجعلَ لهم الصَّفا ذهبًا، وأن يُنَحِّيَ الجبالَ عنهم فيزدَرِعوا، فقيل له: إنْ شِئتَ أن تَستأنِيَ بهم، وإن شِئتَ أن تُؤتيَهم الذي سألوا، فإن كفَروا أُهلِكوا كما أهلَكْتُ مَن قبلَهم، قال: لا، بل أستأني بهم، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الآيةَ: وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً)).[125]

(125) أخرجه أحمد (2333)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11290).
صحَّحه الذهبي في ((تاريخ الإسلام)) (213/1)، وجوَّد إسنادَه ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (49/3)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (96/4)، وقال الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (1159/7): (رجالُه ثقاتٌ رِجالُ الشيخين، فهو على شرطِهما).

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ.

أي: وما منَعَنا أن نأتيَ بالآياتِ التي يقترِحُها كُفَّارُ قَومِك -يا مُحَمَّدُ- إلَّا تكذيبُ الأوَّلينَ بها بعدَ أن سألوها، فكَذَّبوا فعَجَّلْنا بهلاكِهم، فإذا كذَّبَ بها قَومُك -يا محمَّدُ- استحَقُّوا ما استحَقَّه أولئك مِن الهلاكِ والعذابِ؛ فليس لهم مَصلحةٌ في الإرسالِ بها، بل حِكمتُه سُبحانَه تأبى ذلك.

وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا.

أي: وآتَينا ثمودَ النَّاقةَ آيةً وحُجَّةً واضِحةً مُوجِبةً للتبصُّرِ واليقينِ، ودالَّةً على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه، وصِدقِ رَسولِه صالحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فكَفَروا باللهِ، ووقَعوا في الظُّلمِ بقَتلِها، فلمَّا لم يُؤمِنوا كان في إجابتِهم إلى ما سألوا من الآياتِ هلاكُهم واستِئصالُهم!

كما قال تعالى: فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ [الأعراف: 77، 78].

وقال سُبحانَه: فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا [الشمس: 13، 14].

وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا.

أي: وما نُرسِلُ بالآياتِ الموجبةِ للعِبرِ والعِظاتِ إلَّا تخويفًا للعبادِ؛ ليُؤمِنوا، ويرتَدِعوا عمَّا هم عليه.

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خَسَفَت الشَّمسُ فقام النبيُّ - ﷺ - فزِعًا، يخشَى أن تكونَ السَّاعةُ! فأتى المسجِدَ فصلَّى بأطولِ قيامٍ ورُكوعٍ وسُجودٍ رأيتُه قطُّ يفعلُه، وقال: هذه

الآياتُ التي يُرسِلُ اللهُ لا تكونُ لِموتِ أحدٍ ولا لحياتِه، ولكِنْ يخَوِّفُ اللهُ به عِبادَه، فإذا رأيتُم شيئًا مِن ذلك فافزَعوا إلى ذِكرِه، ودُعائِه، واستِغفارِه)).[126]

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (60).

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ.

أي: وإذْ قُلْنا لك – يا محمَّدُ: إنَّ رَبَّك مُحيطٌ بالنَّاسِ بقُدرتِه وعِلمِه؛ فهم في قَبضتِه، وتحتَ مَشيئتِه، واللهُ يعصِمُك منهم حتى تبَلِّغَ رِسالتَه؛ فلا تَخشَ منهم أحدًا، وامضِ لِما أمَرْناك به مِن تبليغِ رِسالتِنا.

كما قال تعالى: يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ [المائدة: 67].

---

(126) رواه البخاري (1059) واللفظ له، ومسلم (912).

وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ.

أي: وما جعلْنا رُؤيا عَينيك –يا محمَّدُ– التي أريناكَ ليلةَ الإسراءِ والمعراجِ مِن الغَرائبِ والعَجائِبِ إلَّا اختِبارًا وبلاءً للنَّاسِ؛ ليتبيَّنَ مَن يُصَدِّقُك ومَن يُكَذِّبُك.(127)

(127) اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك ..﴾ على أقوال: الأول: أنها رؤيا عين، وهي ما رأى النبي – ﷺ – لما أسري به من مكة إلى بيت المقدس.

الثاني: أنها رؤيا منام، وهي رؤياه التي رأى أنه يدخل مكة.

الثالث: أنها رؤيا منام؛ إنما كان رسول الله – ﷺ – رأى في منامه قومًا يعلون منبره.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٤/ ٦٤٦ – ٦٤٧) مستندًا لإجماع الحجة من أهل التأويل القول الأول، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَن قال: عنى به: رؤيا رسول الله – ﷺ – ما رأى من الآيات والعبر في طريقه إلى بيت المقدس، وبيت المقدس ليلة أسري به، وقد ذكرنا بعض ذلك في أول هذه السورة.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لإجماع الحجة من أهل التأويل على أنّ هذه الآية إنما نزلت في ذلك، وإياه عنى الله – عز وجل – بها».

وبنحوه ابنُ كثير (٩/ ٣٦ – ٣٧).

ووجّه ابنُ عطية (٥/ ٥٠٣) قوله: ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ على القول الأول، فقال: «فعلى هذا يحسن أن يكون معنى قوله: ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ أي: في إضلالهم وهدايتهم، وأن كل واحد ميسر لما خلق له، أي: فلا تهتم أنت بكفر من كفر، ولا تحزن عليهم، فقد قيل لك: إن الله محيط بهم، مالك لأمرهم، وهو جعل رؤياك هذه فتنة ليكفر من سبق عليه الكفر.

وسميت الرؤية في هذا التأويل: رؤيا، إذ هما مصدران من رأى».

ووجّه القول الثالث، فقال: «ويجيء قوله: ﴿أحاط بالناس﴾ أي: بأقداره، وأن كل ما قدره نافذ، فلا تهتم بما يكون بعدك من ذلك، وقد قال الحسن بن علي، في خطبته في شأن بيعته لمعاوية: ﴿وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾ [الأنبياء: ١١١]».

ثم انتقده بقوله: «وفي هذا التأويل نظر، ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان بن عفان، ولا عمر بن عبد العزيز، ولا معاوية».

كما قال تعالى: مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى [النجم: 11 – 18].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما في قَولِه تعالى: وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ قال: (هي رُؤيا عينٍ، أُريَها رَسولُ الله – ﷺ – ليلةَ أُسرِيَ به إلى بيتِ المقدِسِ ).[128]

وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ.

أي: وما جعَلْنا الشَّجَرةَ الملعونةَ في القُرآنِ –وهي شَجرةُ الزقُّومِ النابتةُ في الجَحيمِ– إلَّا فِتنةً للنَّاسِ أيضًا؛ ليتبيَّنَ مَن يُصَدِّقُ بها، ومَن يكَذِّبُ ويَستهزِئُ بها؛ إذ قال المُشرِكون: يخبِرُنا مُحَمَّدٌ أنَّ في النَّارِ شَجرةً نابتةً، والنَّارُ تأكُلُ الشَّجَرَ، فكيف تَنبُتُ فيها؟!![129]

---

(128) رواه البخاري (3888).

(129) في قوله تعالى: ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ قولان: الأول: أنها شجرة الزقوم.

الثاني: أنها الكشوثا.

وقد رجَّح ابنُ جرير (١٤/ ٦٥٢) مستندًا إلى إجماع الحجة من أهل التأويل القول الأول، فقال: «وأولى القولين في ذلك بالصواب عندنا قول مَن قال: عنى بها شجرة الزقوم؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك».

وبيّن أن فتنتهم فيها إنما كان قولهم: «يخبرنا محمد أن في النار شجرة نابتة، والنار تأكل الشجر فكيف تنبت فيها؟!».

وزاد ابنُ عطية (٥/ ٥٠٥) عدة أقوال، منها: أن قوله ﴿والشَّجَرَةَ﴾ إشارة إلى القوم المذكورين قبل في الرُّؤْيا.

ثم انتقده بقوله: «وهذا قول ضعيف محدث، وليس هذا عن سهل بن سعد، ولا مثله».

ومنها: «أن المَلْعُونَةَ: المبعدة المكروهة».

ثم علق عليه قائلًا: «وهذا أراد لأنها لعنها بلفظ اللعنة المتعارف، وأيضًا فما ينبت في أصل الجحيم فهو في نهاية البعد من رحمة الله».

كما قال تعالى: أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ [الصافات: 62 – 67].

وقال سُبحانَه: إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ [الدخان: 43 – 46].

وقال عزَّ وجلَّ: ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ [الواقعة: 51 – 56].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ قال: (هي شَجرةُ الزقُّومِ).[130]

---

وذكر ابنُ كثير (٩/ ٣٨) قولًا لم ينسبه، وانتقده، فقال: «قيل: المراد بالشجرة الملعونة: بنو أمية. وهو غريب ضعيف».

(130) رواه البخاري (3888).

وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا.

أي: ونُخوِّفُ المُشرِكين بما نتوعَّدُهم به مِن العَذابِ، فما يَزيدُهم تخويفُنا لهم إلَّا تماديًا في الكُفرِ والضَّلالِ!(131)

كما قال تعالى: وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا [المائدة: 64].

(131) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٠٥) في المخاطب بقوله: ﴿ونخوفهم﴾ قولين، فقال: «وقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ يريد: إما كفار مكة، وإما الملوك من بني أمية بعد الخلافة التي قال فيها النبي – ﷺ –: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكًا عضوضًا»».
ثم رجّح الأول بقوله: «والأول منهما أصوب».
ولم يذكر مستندًا.

## سورةُ الإسراءِ

### الآيات (61-65)

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61)
قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا
(62) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (63) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ
اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ
وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (64) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
بِرَبِّكَ وَكِيلًا (65)

## غريب الكلمات:

**أَرَأَيْتَكَ**: أي: أخبِرْني، وهي كَلِمةٌ تُقالُ عندَ الاستِخبارِ.

**لَأَحْتَنِكَنَّ**: أي: لَأستولِيَنَّ عليهم بالإغواءِ، ولَأستأصِلَنَّهم؛ مَأْخوذٌ مِن قولِهم: احتنَكَ الجرادُ الأرضَ: إذا أتى على نَبْتِها، وجرَد ما عليها أكلًا. وقيل: هو مِن قَولِهم: حَنَك الدَّابَّةَ يَحْنُكُها: إذا ربطَ حَبلًا في حَنَكِها الأسفَلِ، يَقودُها به حيثُ يشاءُ، وأصلُ الحَنَكِ: حَنَكُ الإنسانِ، أقصَى فَمِه.

**مَوْفُورًا**: أي: متمَّمًا، أو تامًّا وافيًا، وأصلُ (وفر): يدُلُّ على كَثرةٍ وتمامٍ.

**وَاسْتَفْزِزْ**: أي: أزعِجْ واستَخِفَّ، وأصلُ (فزز): يدُلُّ على خِفَّةٍ وما قارَبَها.

**وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ**: أي: اجْمَعْ عليهم ما قَدَرْتَ عليه، وأصلُ (جلب): يدُلُّ على سَوقِ الشَّيءِ.

**بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ**: أي: بأعوانِك مِن راكبٍ وماشٍ، والرَّجِلُ والراجِلُ: الماشي، مشتقَّةٌ مِن الرِّجْلِ.

## تفسير الآيات:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا

(61).

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حين قُلْنا للمَلائِكةِ: اسجُدوا لآدَمَ، فسجَدَ الملائِكةُ كُلُّهم له إلَّا إبليسَ، عصَى أمْرَ اللهِ فلم يَسجُدْ؛ حَسَدًا له وكِبْرًا، مع رُؤيتِه لآياتِ اللهِ وعَظَمتِه وقُدرتِه، فلم يَنفَعْه ما عَلِمَه ورآه.[132]

كما قال تعالى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ [البقرة: 34].

قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا.

أي: قال إبليسُ مُخاطِبًا ربَّه باستِنكارٍ: أتأمُرُني أن أسجُدَ لِمَن خَلقْتَه مِن طِينٍ؟!

---

(132) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٠٦) ما جاء في قول ابن عباس: «أن إبليس هو الذي أمره الله فأخذ من الأرض طينة آدم».
ثم علّق بقوله: «والمشهور أنه ملك الموت».

قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62).

قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ.

أي: قال إبليسُ مُخاطِبًا ربَّه بكُلِّ جُرأةٍ: أخبِرْني أهذا هو الذي فضَّلْتَه عليَّ؟ فلِمَ تأمُرُني بالسُّجودِ له وأنا خَيرٌ منه؟!

كما قال تعالى: قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ [الأعراف: 12].

لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا.

أي: قال إبليسُ: أُقسِمُ بك لَئِنْ أخَّرْتَ إهلاكي إلى يومِ القيامةِ لأَستولِيَنَّ على ذرِّيَّةِ آدَمَ، فأُضِلَّنَّهم عن طريقِ الحَقِّ، وأقودَنَّهم إلى حيثُ أشاءُ مِن طُرُقِ الباطلِ، إلَّا قليلًا منهم.

كما قال تعالى: وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ [النساء: 118- 119].

وقال سُبحانَه: قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ [الأعراف: 14 – 17].

وقال عزَّ وجلَّ: قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [الحجر: 36 – 40].

وقال جلَّ جلالُه: قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [ص: 79 – 83].

قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (63).

أي: قال اللهُ لإبليسَ: اذهَبْ فقد أخَّرتُ إهلاكَك، فمن أطاعَك مِنْ ذُرِّيةِ آدمَ فإنَّ جهنَّم جزاؤُكم على أعمالِكم جزاءً مُتمَّمًا، مُكمَّلًا، لا نَقْصَ فيه.

كما قال تعالى: قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ [ص: 84– 85].

وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (64).

وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ.

أي: قال اللهُ تعالى لإبليسَ آمِرًا له على سَبيلِ التَّهديدِ بعاقِبتِه الوَخيمةِ: واستَخِفَّ وأزعِجْ –يا إبليسُ– مَن استطَعْتَ أن تَستخِفَّه مِن بني آدَمَ بدُعائِك لهم إلى مَعصيةِ اللهِ.(133)

وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ.

أي: واجمَعْ –يا إبليسُ– على بني آدَمَ جُنودَك –الركبانَ منهم والمشاةَ– الذين يَدعُونَهم إلى مَعصيةِ اللهِ، فيَحمِلوا عليهم بكُلِّ ما يَقدِرونَ عليه مِن وَسائِلِ الفِتنةِ والكَيدِ لإضلالِهم.

كما قال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا [مريم: 83].

وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((إنَّ إبليسَ يَضَعُ عَرشَه على الماءِ، ثُمَّ يَبعَثُ سَراياه، فأدْناهم منه مَنزِلةً أعظَمُهم فِتنةً، يجيءُ أحَدُهم فيَقولُ: فعَلْتُ كذا وكذا، فيقولُ: ما

---

(133) في قوله: ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ قولان: الأول: أنه الغناء واللهو.

الثاني: أنه دعاؤه إياهم للمعصية.

وقد رجَّح ابنُ جرير (١٤/ ٦٥٨) العموم في ذلك، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يُقال: إن الله –تبارك وتعالى– قال لإبليس: واستفزز مِن ذرية آدم مَن استطعت أن تستفزه بصوتك، ولم يخصص من ذلك صوتًا دون صوت، فكل صوت كان دعاء إليه وإلى عمله وطاعته، وخلافًا للدعاء إلى طاعة الله؛ فهو داخل في معنى صوته الذي قال الله –تبارك وتعالى اسمه– له: ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾».

ووافقه ابن عطية (٥/ ٥٠٩) بقوله: «والصواب أن يكون الصوت يعم جميع ذلك».

زاد ابنُ عطية (٥/ ٥٠٩) في قوله: ﴿بخيلك ورجلك﴾ إضافة إلى ما ورد في أقوال السلف قولًا آخر، ووجّهه، فقال: «قيل: هذا مجاز واستعارة، بمعنى: اسع سعيك، وابلغ جهدك».

صنعْتَ شيئًا! قال: ثم يجيءُ أحَدُهم فيقولُ: ما تركْتُه حتى فرَّقتُ بينَه وبينَ امرأتِه، قال: فيُدنيه منه، ويَقولُ: نِعْمَ أنتَ!!)).(134)

وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ.

أي: ولْيكُنْ لك نَصيبٌ معهم في كُلِّ مالٍ أو ولَدٍ تعلَّقَت به مَعصيةُ اللهِ عزَّ وجلَّ.(135)

---

(134) رواه مسلم (2813).

(135) اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿وشاركهم في الأموال﴾ على أقوال: الأول: هو أمره إياهم بإنفاق أموالهم في غير طاعة الله، واكتسابها من غير حلها.

الثاني: عنى بذلك: كل ما كان من تحريم المشركين ما كانوا يحرمون من الأنعام كالبحائر والسوائب ونحو ذلك.

الثالث: عنى به: ما كان المشركون يذبحونه لآلهتهم.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٤/ ٦٦٣) العموم في ذلك، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ من قال: عنى بذلك: كلَّ مال عصى الله فيه بإنفاق في حرام، أو اكتساب من حرام، أو ذبح للآلهة، أو تسييب، أو بحر للشيطان، وغير ذلك مما كان معصيًا به أو فيه، وذلك أن الله قال: ﴿وشاركهم في الأموال﴾، فكل ما أطيع الشيطان فيه مِن مال وعُصِي الله فيه فقد شارك فاعل ذلك فيه إبليس؛ فلا وجه لخصوص بعض ذلك دون بعض».

وبمثله قال ابنُ عطية (٥/ ٥١٠): «﴿وشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾ عامٌّ لكل معصية يصنعها الناس بالمال، فإن ذلك المصرف في المعصية هو حظ إبليس، فمن ذلك البحائر وشبهها، ومن ذلك مهر البغي، وثمن الخمر، وحلوان الكاهن، والربا، وغير ذلك مما يوجد في الناس دأبًا».

اختلف السلف في مشاركة إبليس بني آدم في الأولاد كيف هي على أقوال: الأول: أن ذلك بالزنا في أمهاتهم.

الثاني: أن ذلك ما كان مِن وأدهم وقتلهم أبناءهم.

الثالث: أن ذلك تسميتهم أولادهم: عبد الحارث، وعبد شمس.

وقد ذكر ابنُ جرير (١٤/ ٦٦٥) هذه الأقوال، ورجّح العموم فيها، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقال: كل ولد ولدته أنثى عصي الله بتسميته ما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو قتله ووأده، أو غير ذلك من الأمور التي يعصي الله بها بفعله به أو فيه؛ فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك المولود له أو منه؛ لأن الله لم يخصص بقوله: ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى، فكل ما عصي الله فيه أو به، وأطيع به الشيطان أو فيه؛ فهو مشاركة من عصي الله فيه أو به إبليس فيه».

كما قال تعالى: وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ [الأنعام: 136 – 140].

وقال سُبحانَه: قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ [يونس: 59].

وعن عِياضِ بنِ حِمارٍ المُجاشِعيِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((ألَا إنَّ رَبِّي أمَرَني أن أعَلِّمَكم ما جَهِلتُم مِمَّا عَلَّمَني يومي هذا: كُلُّ مالٍ نَحَلْتُه[136] عبدًا حَلالٌ، وإنِّي خَلَقتُ عِبادي حُنَفاءَ

---

وبنحوه ابنُ عطية (٥/ ٥١٠).

وكذا ابنُ كثير (٩/ ٤١)، وعلّق بقوله: «وكلٌّ من السلف –رحمهم الله– فسر بعض المشاركة».

وذكر ابنُ عطية قولًا آخر عن النقاش، وانتقده، فقال: «وما أدخل النقاش من وطءِ الجن، وأنه يحبل المرأة من الإنس؛ فضعيف كله».

(136) نَحَلْتُه: أي: أعطيتُه.

يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: 306).

كُلَّهم، وإنَّهم أتَتْهم الشَّياطينُ فاجتالَتْهم[137] عن دِينِهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يُشرِكوا بي ما لم أُنزِّلْ به سُلطانًا)).[138]

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النبيُّ - ﷺ -: ((لو أنَّ أحدَكم إذا أتى أهْلَه قال: جَنِّبْني الشَّيطانَ وجَنِّبِ الشَّيطانَ ما رزَقْتَني؛ فإنْ كان بينهما ولَدٌ لم يَضُرَّه الشَّيطانُ، ولم يُسلَّطْ عليه)).[139]

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّه سَمِعَ النَّبيَّ - ﷺ - يقولُ: ((إذا دخَلَ الرَّجُلُ بيتَه فذكَرَ اللهَ عند دُخولِه وعندَ طعامِه، قال الشَّيطانُ: لا مَبيتَ لكم ولا عَشاءَ، وإذا دخَلَ فلم يَذكُرِ اللهَ عند دُخولِه، قال الشَّيطانُ: أدركْتُم المَبيتَ، وإذا لم يَذكُرِ اللهَ عند طَعامِه، قال: أدركْتُم المَبيتَ والعَشاءَ)).[140]

وعن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كنَّا إذا حَضَرْنا مع النبيِّ - ﷺ - طعامًا، لم نضَعْ أيدِيَنا حتى يبدأَ رَسولُ اللهِ - ﷺ - فيَضَعَ يَدَه، وإنَّا حَضَرْنا معه مرَّةً طعامًا، فجاءَتْ جاريةٌ كأنَّها تُدفَعُ، فذهَبَت لِتَضَعَ يَدَها في الطَّعامِ، فأخَذ رَسولُ الله - ﷺ - بيَدِها، ثمَّ جاء أعرابيٌّ كأنَّما يُدفَعُ،

---

(137) فاجتالَتْهم: أي: استخفُّوهم فذَهَبوا بهم وأزالوهم عمَّا كانوا عليه.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (197/17).
(138) رواه مسلم (2865).
(139) رواه البخاري (3283) واللفظ له، ومسلم (1434).
(140) رواه البخاري (3283) واللفظ له، ومسلم (1434).

فأخَذَ بِيَدِه، فقال رَسولُ الله – ﷺ –: إنَّ الشَّيطانَ يَستَحِلُّ الطَّعامَ أنْ لا يُذكَرَ اسمُ اللهِ عليه، وإنَّه جاء بهذه الجاريةِ لِيَستَحِلَّ بها، فأخَذْتُ بيَدِها، فجاء بهذا الأعرابِيِّ لِيَستَحِلَّ به فأخذْتُ بيَدِه، والذي نفسي بيَدِه إنَّ يَدَه في يَدِي مع يَدِها)).(141)

وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا.

أي: وعِدْهم –يا إبليسُ– بالوُعودِ الكاذِبةِ، وما يَعِدُهم الشَّيطانُ البَعيدُ عن الرَّحمةِ وكُلِّ خيرٍ إلَّا أمانيَّ باطلةً في الحَقيقةِ.

كما قال تعالى: يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا [النساء: 120].

وقال سُبحانَه: وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [إبراهيم: 22].

---

(141) رواه مسلم (2017).

## إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (65).

### إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ.

أي: إنَّ عبادي الصَّالحينَ الذين يَعبُدونَني وَحدي مُخلِصينَ لي الدِّينَ، ليس لك عليهم –يا إبليسُ– تَسَلُّطٌ ولا حُجَّةٌ، ولا تَستطيعُ إغواءَهم أو إضلالَهم؛ فاللهُ يَحفَظُهم ويَحرُسُهم ويُؤَيِّدُهم.(142)

كما قال تعالى: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ [الحجر: 42].

وقال سُبحانَه: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ [النحل: 99– 100].

### وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا.

أي: وكفى بربِّك –يا مُحمَّدُ– حافِظًا مِن كيدِ الشَّياطينِ ومَكْرِهم، وناصِرًا ومُؤَيِّدًا للمُتوكِّلينَ.

(142) قال ابنُ عطية (٥/ ٥١٠): «والسلطان: الملكة والتغلب، وتفسيره هنا بالحجة قلق».

# سورةُ الإسراءِ

## الآيات (66–69)

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66) وَإِذَا
مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
كَفُورًا (67) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ
وَكِيلًا (68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ
بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (69)

## غريب الكلمات:

يُزْجِي: أي: يَسوقُ ويُسَيِّرُ، وأصلُ (زجي): يدُلُّ على تَسييرِ الشَّيءِ مِن غَيرِ حَبسٍ.

حَاصِبًا: أي: حِجارةً، أو ريحًا عاصِفًا تَرمي بالحَصْباءِ، وهي الحَصَى الصِّغارُ، وأصلُ (حصب): يدُلُّ على الرَّميِ.

قَاصِفًا: ريحًا شَديدةً، تَكسِرُ كُلَّ شَيءٍ، وتُحَطِّمُه، وأصلُ (قصف): يدُلُّ على كَسرٍ لِشَيءٍ.

تَبِيعًا: تابعًا مُطالِبًا بالثَّأرِ لكم، وأصلُ (تبع): يدلُّ على التُّلُوِّ والقَفْوِ.

## تفسير الآيات:

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66).

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ.

أي: ربُّكم هو وَحْدَه الذي يَسوقُ لكم السُّفُنَ في البَحرِ؛ لِتَطلُبوا برُكوبِها الرِّزقَ مِن اللهِ بالتِّجارةِ، وطَلَبِ المَعاشِ.

كما قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [الجاثية: 12].

إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا.

أي: سهَّل اللهُ لكم سَيرَ السُّفُنِ في البِحارِ لِنَفْعِكم؛ لأنَّه رَحيمٌ بكم.

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (67).

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ.

أي: وإذا أصابَتْكم الشِّدَّةُ في البَحرِ -كما لو أمسَكَت السَّفينةُ عن الجَريِ، أو اشتَدَّت عليكم الرِّيحُ، وهاجَت بكم الأمواجُ واضطَرَبت، وخَشِيتُم الغَرَقَ- غاب عن قُلوبِكم كلُّ مَن تَدعونَهم مِن دُونِ اللهِ، ولم تَستغيثوا إلَّا باللهِ وَحدَه؛ لعِلْمِكم بأنَّه لا يُنَجِّيكم أحدٌ سِواه.

فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ.

أي: فلمَّا نجَّاكم اللهُ مِن الغَرَقِ، وأوصَلَكم إلى البَرّ؛ أعرَضْتُم عن شُكرِه وتَوحيدِه، والإخلاصِ له سُبحانَه!

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [يونس: 22- 23].

وقال سُبحانَه: فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ [العنكبوت: 65].

وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا.

أي: وكان الإنسانُ مَطبوعًا على الجُحودِ لنِعَمِ اللهِ عليه؛ فهذه سَجِيَّتُه إلَّا مَن عَصَمَه اللهُ تعالى.

كما قال تعالى: وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ [هود: 9، 10].

وقال سبحانه: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ [العاديات: 6].

أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (68).

أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ.

أي: أفأمِنْتُم أن يجعَلَ اللهُ الأرضَ تَنهارُ بكم في جانِبِ البَرِّ إنْ خَرَجتُم مِن البَحرِ سالِمينَ؟ فهو قادِرٌ على إهلاكِكم سواءٌ في البَحرِ أو في البَرِّ.

كما قال تعالى: أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ [الملك: 16].

أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا.

أي: أوْ أمِنْتُم أن يُرسِلَ اللهُ عليكم حِجارةً مِن السَّماءِ فيُمطِرَكم بها، فيُهلِكَكم؟

كما قال تعالى: أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ [الملك: 17].

ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا.

أي: ثمَّ لا تَجِدوا لكم ناصِرًا يَدفَعُ عنكم العَذابَ، ويُنقِذُكم منه.

أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (69).

أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى.

أي: أم أمِنْتُم –يا مَن أعرَضْتُم عن توحيدِ اللهِ، وإخلاصِ الدِّينِ له، بَعدَما اعترَفْتُم بذلك في البَحرِ فأنقَذَكم– أن يَرجِعَكم اللهُ في البَحرِ مرَّةً أخرى؟

فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ.

أي: فيُرسِلَ اللهُ عليكم في البَحرِ رِيحًا شَديدةً تَكسِرُ سُفُنَكم، فيُغرِقَكم بسبَبِ كُفرِكم باللهِ، وإعراضِكم عنه؟

ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا.

أي: ثمَّ لا تَجِدوا لكم تابِعًا يثأرُ لكم، ويُطالِبُنا بما فعَلْنا بكم.

# سورةُ الإسراءِ

## الآيات (70–72)

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70) يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (72)

## غريب الكلمات:

فَتِيلًا: الفَتيلُ: الخيطُ الذي في بَطنِ النَّواةِ، ويُضرَبُ مَثَلًا للشَّيءِ الحَقيرِ التَّافِهِ، وأصلُ (فتل): يدُلُّ على لَيِّ شَيءٍ.

## تفسير الآيات:

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70).

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ.

أي: ولقد شرَّفْنا بني آدمَ قاطِبةً برَّهم وفاجِرَهم بأنواعِ الشَّرَفِ والمحاسِنِ الكَثيرةِ، بما أنعَمَ اللهُ تعالى عليهم مِن النِّعَمِ الظَّاهرةِ والباطِنةِ التي لا يُمكِنُ لهم حَصرُها؛ ومنها تَمييزُهم بالعَقلِ، وتَسخيرُ المخلوقاتِ لهم.

وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ.

أي: وحَمَلْنا بني آدَمَ في البَرِّ على ظُهورِ الدوابِّ وغيرِها مِن المَراكِبِ، وفي البَحرِ على ظُهورِ السُّفُنِ والقَوارِبِ.

كما قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ [غافر: 79-80].

وقال سُبحانَه: وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ [الزخرف: 12-14].

وَرزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ.

أي: ورزَقْنا بني آدمَ مِن سَائِرِ مَا يستلِذُّونه وينتَفِعونَ به، كأنواعِ المآكِلِ والمشارِبِ.

كما قال تعالى: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ [البقرة: 172].

وقال سُبحانَه: وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ [الأنعام: 141، 142].

وقال عزَّ وجلَّ: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [النحل: 66–69].

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا.

أي: وفضَّلْنا بني آدمَ على كثيرٍ مِن المخلوقاتِ تفضيلًا عظيمًا؛ وذلك بما منَحهم اللهُ مِن النِّعَمِ والخَصائِصِ التي لم يُعطِها لغيرِهم مِن مخلوقاتِه.

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71).

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ.

أي: اذكُرْ يومَ القيامةِ حينَ نُنادي كُلَّ قَومٍ بإمامِهم في الدُّنيا.[143]

(143) لخَّصَ ابنُ عطية (٥/ ٥١٦) أقوال المفســرين في معنى قوله تعالى: ﴿بإمامهم﴾، فقال: «وقوله: ﴿بإمامهم﴾ يحتمل أن يريد: باسم إمامهم.

ويحتمل أن يريد: مع إمامهم.

فعلى التأويل الأول: يقال: يا أمة محمد – ﷺ –، ويا أتباع فرعون، ونحو هذا.

وعلى التأويل الثاني: تجيء كل أمة معها إمامها من هادٍ أو مضلّ.

واختلف المفسرون في الإمام.

فقال مجاهد وقتادة: نبيهم.

وقال ابن زيد: كتابهم الذي نزل عليهم.

وقال ابن عباس والحسن: كتابهم الذي فيه أعمالهم.

وقالت فرقة: مُتَّبَعُهُم، مِن هادٍ أو مضلّ «.

ثم ذَهَبَ إلى أنّ لفظة» الإمام «تعُمّ تلك الأقوال، فقال:» ولفظة «الإمام» تعُمّ هذا كله؛ لأن الإمام هو ما يؤتم به، ويُهْتَدى به في القصد».

ورجَّحَ ابنُ جرير (١٥/ ٨) القولَ الأخيرَ –بعد أن أدخل فيه القول الأول، أعني: قول مجاهد، وقتادة– اســتنادًا إلى الأغلب في اللغة، فقال: «أولى هذه الأقوال عندنا بالصـواب قولُ مَن قال: معنى ذلك: يوم ندعو كل أناس بإمامهم الذي كانوا يقتدون به، ويأتمون به في الدنيا.

لأن الأغلب من استعمال العرب» الإمام «فيما ائْتُمَّ واقتدي به، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهر أولى، ما لم تثبت حجة بخلافه يجب التسليم لها».

وهذا ظاهر كلام ابن تيمية (٤/ ٢٣٧).

فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا.

أي: فمَن أُعطِيَ كتابَ أعمالِه بيَدِه اليمنى، فأولئك يَقرؤونَ كِتابَهم هذا بفَرَحٍ وسُرورٍ؛ لِما يَرونَ فيه مِن أعمالِهم الصَّالحةِ التي عَمِلوها في الدُّنيا، ولا يَنقُصُهم اللهُ مِن جَزاءِ أعمالِهم الصَّالحةِ شَيئًا، ولو كان يَسيرًا في غايةِ القِلَّةِ والحَقارةِ، كالخَيطِ الذي في شَقِّ نَواةِ التَّمرةِ.

كما قال تعالى: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ [الحاقة: 19 – 26].

وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (72).

---

ورجَّح ابنُ كثير (٩/ ٤٧ – ٤٨ بتصرف) أنّ «الإمام» هو كتاب أعمالهم، كما قال ابن عباس، والحسن، استنادًا إلى النظائر والسياق، فقال: «المراد هاهنا بالإمام هو: كتاب الأعمال؛ ولذا قال تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم﴾ ...

وهذا القول هو الأرجح؛ لقوله تعالى: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ [يس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ووُضِعَ الكِتابُ فَتَرَى المُجْرِمينَ مُشْفِقِينَ مِمّا فِيهِ ويَقُولُونَ يا ويْلَتَنا مالِ هَذا الكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرةً ولا كَبِيرةً إلّا أحْصاها ووَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِرًا ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]».

أي: ومَن كان في هذه الدُّنيا أعمى القَلبِ لا يُبصِرُ الحقَّ ؛ فهو في الدَّارِ الآخرةِ أعمى وأضَلُّ طريقًا.(144)

قال تعالى: وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا [الإسراء: 97، 98].

(144) اختُلِف في المعنى الذي أُشـير إليه بقوله تعالى: ﴿هذه﴾ على قولين: الأول: أنه أشـار بذلك إلى النِّعَم المذكورة قبلُ، والمعنى: ومَن كان في هذه النِّعَم أعمى؛ فهو في نِعَمِ الآخرة أعمى وأضل سبيلًا.

والثاني: أنه أشـار بذلك إلى الدنيا، والمعنى: ومَن كان في هذه الدنيا أعمى عن قدرة الله فيها وحُجَجِه؛ فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلًا.

ورجَّحَ ابنُ جرير (١٩/ ١١ – ١٢) القولَ الثانيَ –وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد– استنادًا إلى العموم، وقال: «إنما قلنا: ذلك أولى تأويلاته بالصواب؛ لأن الله –تعالى ذكره– لم يخصص في قوله: ﴿ومن كان في هذه﴾ الدنيا ﴿أعمى﴾ عمى الكافر به، عن بعض حججه عليه فيها دون بعض، فيوجَّه ذلك إلى عماه عن نعمه بما أنعم به عليه من تكريمه بني آدم، وحمله إياهم في البر والبحر، وما عدَّد في الآية التي ذكر فيها نعمه عليهم، بل عمَّ بالخبر عن عماه في الدنيا، فهو كما عمَّ –تعالى ذكره–».

وذَهَبَ إلى ذلك أيضًا ابنُ كثير (٩/ ٤٨ – ٤٩).

وهو ظاهر كلام ابن عطية (٥/ ٥١٨)، ثمّ علّقَ قائلًا: «وبهذا التأويل، تكون معادلةً للتي قبلها مِن ذِكْر مَن يُؤْتى كتابه بيمينه. وإذا جعلنا قوله: ﴿في الآخرة﴾ بمعنى: في شأن الآخرة، لم تطرد المعادلة بين الآيتين».

وذكر (٥/ ٥١٧ – ٥١٨) أنّ العمى في هذه الآية هو عمى القلب في الأول والثاني، وبيّن أن ما قال سـيبويه: «لا يقال: أعمى من كذا.

إنما هو في عمى العين الذي لا تفاضل فيه، وأما في عمى القلب فيقال ذلك؛ لأنّه يقع فيه التفاضل».

ونقل أن مكيًّا قال بأن العمى الأول هو عمى العين عن الهُدى، وانتقده بقوله: «وهذا بين الاختلال».

وقال سُبحانَه: وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى [طه: 124– 127].

# سورةُ الإسراءِ

## الآيات (73–77)

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73)
وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ
وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ
لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ
رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (77)

## غريب الكلمات:

تَرْكَنُ: أي: تطمئنُّ، وتسكنُ، ورُكْنُ الشيءِ: جانبُه الذي يسكنُ إليه، وأصلُ (ركن): يدلُّ على قوةٍ.

لَيَسْتَفِزُّونَكَ: أي: يَحمِلونك على أن تَخرُجَ مِن مَكَّةَ، والاستِفزازُ: الحَملُ على التَّرَحُّلِ، وهو استِفعالٌ مِن فَزَّ، بمعنى: بارحَ المكانَ، وأصلُ (فزز): يدُلُّ على خِفَّةٍ وما قارَبَها.

## تفسير الآيات:

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73).

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ.

أي: وقد قارَبَ كُفَّارُ قومِك -يا مُحَمَّدُ- أن يُزيغُوك بحِيَلِهم عن القُرآنِ الذي أوحَيناه إليك؛ كي تختَلِقَ علينا غيرَه، فتجيءَ بما يُوافِقُ أهواءَهم، وتدَعَ القُرآنَ.(145)

وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا.

---

(145) اختُلِف في الفتنة التي كاد المشـــركون أن يفتنوا رســـول الله - ﷺ - بها عن الذي أوحى الله إليه إلى غيره على قولين:

الأول: أنّ ذلك الإلمام بالآلهة؛ لأن المشركين دعوه إلى ذلك، فَهَمَّ به رسول الله - ﷺ -.

والثاني: أنّ ذلك كان أن رسول الله - ﷺ - همَّ أن يُنظِرَ قومًا بإسلامهم إلى مُدَّة سألوه الإنظار إليها.

وذَهَبَ ابنُ جرير (١٥/ ١٥) إلى أنّ كِلا القولين جائز لعدم الدليل على تعيين أحدهما، فقال: «الصـواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله -تعالى ذكره- أخبر عن نبيه - ﷺ - أن المشركين كادوا أن يفتنوه عما أوحاه الله إليه ليعمل بغيره، وذلك هو الافتراء على الله.

وجائز أن يكون ذلك كان ما ذكر عنهم من ذكر أنهم دعوه أن يمسَّ آلهتهم ويُلِمَّ بها، وجائز أن يكون ذلك كان ما ذُكِر عن ابن عباس من أمر ثقيف، ومسـألتهم إياه ما سـألوه مما ذكرنا، وجائز أن يكون غير ذلك، ولا بيان في الكتاب ولا في خبر يقطع العذر أيّ ذلك كان، والاختلاف فيه موجود على ما ذكرنا، فلا شـيء فيه أصـوبُ من الإيمان بظاهره، حتى يأتي خبرٌ يجب التسليم له ببيان ما عنى بذلك منه».

وعلّقَ ابنُ عطية (٥/ ٥١٩) على القولين، فقال: «وجمع ما أُريد من النبي - ﷺ - بحسـب هذا الاختلاف قد أوحى الله إليه خلافه؛ إما في مُعْجِز، وإما في غير مُعْجِز، وفعله هو -إن لو وقع- افتراء على الله؛ إذ أفعاله وأقواله إنما هي كلها شرع».

أي: ولو فعلْتَ –يا مُحَمَّدُ– ما دعاك إليه قومُك من مخالفةِ القُرآنِ، واتِّباعِ أهوائِهم؛ لجعَلوك حَبيبًا ووَلِيًّا وصَفِيًّا لهم.

وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74).

أي: ولولا أن ثبَّتْناك –يا مُحَمَّدُ– على الحقِّ، وعَصَمْناك مِنَ الانخداعِ بحِيَلِ قَومِك الكُفَّارِ؛ لقارَبْتَ أن تَميلَ إليهم شَيئًا قَليلًا، فتفعَلَ بعضَ الذي سألوك فِعْلَه.

إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75).

إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ.

أي: لو رَكَنْتَ قليلًا إلى المُشرِكينَ –يا مُحَمَّدُ– ففعَلْتَ بعضَ ما سألوك، لأذقْناك عَذابًا مُضاعَفًا في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخِرةِ.

كما قال تعالى: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ [الحاقة: 44 – 47].

ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا.

أي: ثمَّ لا تَجِدُ لك –يا مُحَمَّدُ– ناصِرًا يَنصُرُك ويمنَعُك مِن عذابِنا.

وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76).

وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا.

أي: ولقد قارَبَ هؤلاء المُشرِكونَ أن يُزعِجوك ويَستَخِفُّوك مِن مَكَّةَ -يا مُحَمَّدُ- بكَثرةِ إيقاعِ الأذى بك؛ لِيُخرِجوك منها.

كما قال تعالى: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [الأنفال: 30].

وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا.

أي: ولو أخرَجَك قومُك -يا مُحَمَّدُ- مِن مَكَّةَ، فلن يَبْقوا فيها بَعدَك إلَّا قَليلًا حتى يُهلِكَهم اللهُ بعَذابٍ عاجِلٍ.

سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (77).

سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا.

أي: لو أخرجَك الكُفَّارُ -يا مُحَمَّدُ- مِن مَكَّةَ، فلن يلبثُوا فيها إلَّا قليلًا حتَّى نُهلِكَهم بعذابِنا، كما هي عادَتُنا في إهلاكِ الأُمَمِ الكافرةِ التي أرسَلْنا إليهم رُسُلًا مِن قَبلِك، فآذَوْهم، وأخرَجوهم مِن بلادِهم.

وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا.

أي: ولا تَجِدُ –يا مُحَمَّدُ– تغييرًا عمَّا جرَت به عادتُنا، ولا يَقدِرُ أحَدٌ على تَغييرِها.

كما قال تعالى: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا [فاطر: 42 – 44].

## سورةُ الإسراءِ

### الآيات (78-81)

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (80) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81)

## غريب الكلمات:

لِدُلُوكِ: أي: غُرُوبِ وزَوالِ، وأصلُ (دلك): يدلُّ على مَيلٍ وزَوالٍ.

غَسَقِ: أي: ظَلامِ، وأصلُ (غسق): يدُلُّ على ظُلمةٍ.

فَتَهَجَّدْ: أي: اسهَرْ، وألقِ الهُجودَ، وهو النَّومُ، فمادَّةُ التفَعُّلِ فيه للإزالةِ، مثل التحَرُّجِ والتأثُّمِ، وأصلُ (هجد): يدُلُّ على رُكودٍ، كأنَّه بصَلاتِه ترَك الهُجودَ عنه.

نَافِلَةً: أي: زيادةً؛ مِن النَّفلِ: وهو الزِّيادةُ على الواجِبِ، وأصلُ (نفل): يدُلُّ على عَطاءٍ وإعطاءٍ.

مُدْخَلَ: المدخَلُ: الإدخالُ، مِن أدخَل، والدُّخولُ: نقيضُ الخروجِ.

مُخْرَجَ: المخرَجُ: الإخراجُ، وخرَج خُروجًا: برَز مِن مقرِّه أو حالِه، وأصلُ (خرج): النَّفاذُ عَنِ الشَّيءِ.

وَزَهَقَ: أي: بطَلَ وهلَكَ، وأصلُ (زهق): يدُلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ، وقِلَّةِ مُكثِه ولُبثِه.

## تفسير الآيات:

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا

(78).

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ.

أي: أدِّ –يا مُحَمَّدُ– الصَّلَواتِ المكتوباتِ على وَجهِ التَّمامِ بجَميعِ أركانِها وشُروطِها، في أوقاتِها؛ مِن مَيلِ الشَّمسِ للزَّوالِ –فيَدخُلُ في ذلك صَلاتا الظُّهرِ والعَصرِ– إلى إقبالِ الظَّلامِ واجتِماعِه، ويدخُلُ في ذلك صلاتا المَغرِبِ والعِشاءِ.

كما قال تعالى: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ [هود: 114].

وقال سُبحانَه: فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ [الروم: 17، 18].

وَقُرْآنَ الْفَجْرِ.

أي: وأقِمْ –يا مُحَمَّدُ– صَلاةَ الفَجرِ.

عن أبي بَرزةَ الأسلميّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان رَسولُ الله – ﷺ – يَقرأُ في الفَجرِ ما بين السِّتينَ إلى المائةِ آيةٍ)).[146]

وعن جابِرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((إنَّ النَّبيَّ – ﷺ – كان يقرأُ في الفَجرِ بـ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ [ق: 1]، وكان صلاتُه بعدُ تخفيفًا)).[147]

وعنه أيضًا: ((أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – كان يقرأُ في الظُّهرِ بـ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى [الأعلى: 1]، وفي الصُّبحِ بأطوَلَ مِن ذلك)).[148]

وعنه أيضًا، قال: ((كان رَسولُ اللهِ – ﷺ – يقرأُ في الفَجرِ «الواقِعةَ» ونَحوَها مِن السُّوَرِ)).[149]

إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا.

---

(146) رواه البخاري (541)، ومسلم (461) واللفظ له.

(147) رواه مسلم (458).

(148) رواه مسلم (459).

(149) أخرجه أحمد (20995)، وابن خُزيمة (531)، وابن حبَّان (1823) مطوَّلًا.

صحَّحه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (430/1)، والألباني في ((أصل صفة الصلاة)) (430/2) وقال: (على شرط مسلم).

أي: إنَّ صَلاةَ الفَجرِ مَحضورةٌ؛[150] تَشهَدُها مَلائِكةُ اللَّيلِ، ومَلائِكةُ النَّهارِ.[151]

---

(150) اختُلِف في المراد بقوله: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كانَ مَشْهُودًا﴾ على قولين: الأول: يشهده الله وملائكته.

الثاني: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار.

وذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٢٦) أن الجمهور على القول الثاني، وأيده بحديث أبي هريرة التالي وما في معناه.

ونقل ابنُ القيم (٢/ ١٤٥ – ١٤٦) عن أصحاب القول الأول أنهم قالوا: «وهذا لا ينافي قولنا، وهو أن يكون الله سبحانه وملائكة الليل والنهار يشهدون قرآن الفجر، وليس المراد الشهادة العامة؛ فإن الله على كل شيء شهيد، بل المراد شهادة خاصة، وهي شهادة حضور ودُنُوٍّ متصل بدنو الرب تعالى ونزوله إلى سماءِ الدنيا في الشطر الأخير من الليل».

(151) اختُلِف في الصلوات المشار إليها بقوله: ﴿لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر﴾ على قولين: الأول: أن الإشارة بدلوك الشمس إلى الظهر والعصر، وغسق الليل أشير به إلى المغرب والعشاء، وقرآن الفجر أريد به صلاة الصبح، ودلوك الشمس –على هذا– زوالها.

وهذا قول ابن عمر، وابن عباس، وأبي بردة، والحسن.

الثاني: أنّ الإشارة بالدلوك إلى المغرب، وغسق الليل: اجتماع ظلمته، فالإشارة إلى العتمة، وقرآن الفجر: صلاة الصبح، ودلوك الشمس –على هذا–: غروبها.

وهذا قول ابن مسعود، وابن عباس، وزيد بن أسلم.

وذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٢٣ – ٥٢٤) أنّ الآية على القول الأول تعم جميع الصلوات، وهي على القول الثاني لم تشر إلى الظهر والعصر، ثم رجَّح القول الأول، فقال: «والقول الأول أصوب؛ لعمومه الصلوات».

وكذا رجَّحه ابنُ جرير (١٥/ ٣٠ – ٣٣) مستندًا إلى السنة، واللغة.

ومردّ الخلاف في ذلك راجع إلى المعنى اللغوي للدلوك؛ فإنه فُسِّر بأمرين: الأول: أنّه زوال الشمس.

الثاني: أنّه غروب الشمس.

وذكر ابنُ تيمية (٥/ ٢٤٢ – ٢٤٣) أن الدلوك: الزوال عند أكثر السلف، وهو الصواب، وبيّن أنهما ليسا بقولين، بل اللفظ يتناولهما معًا؛ فإن الدلوك: هو الميل، ولهذا الميل مبتدأ ومنتهى، فمبتدأه الزوال، ومنتهاه الغروب، واللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار.

وبنحوه قال ابنُ جرير (١٥/ ٢٧ – ٢٩)، وكذا ابنُ القيم (٢/ ١٤٧).

ذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٢٣) أنّ هذه الآية إشارة إلى الصلوات المفروضة بإجماع من المفسرين.

ذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٢٦) أنّ ما ورد في هذا الأثر وما يشبهه من شهادة الله لقرآن الفجر ليس بقوي.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيّ – ﷺ – قال: ((فَضلُ صَلاةِ الجَميعِ على صلاةِ الواحِدِ خَمسٌ وعِشرونَ دَرجةً، وتجتمِعُ ملائِكةُ اللَّيلِ وملائِكةُ النَّهارِ في صلاةِ الصُّبحِ، يقولُ أبو هريرة: اقرَؤوا إن شِئتُم: وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)).[152]

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79).

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ.

أي: ومِن بَعضِ اللَّيلِ قُمْ –يا مُحَمَّدُ– مِن نَومِك فصَلِّ بالقُرآنِ؛ زيادةً لك.[153]

---

(152) رواه البخاري (4717) واللفظ له، ومسلم (649).

(153) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٢٧) أن قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ «مِن» للتبعيض، التقدير: ووقتًا من الليل، أي: وأقم وقتًا من الليل، والضمير في ﴿بِهِ﴾ عائد على هذا المقدر، ثم أورد احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل أن يعود على القرآن، وإن كان لم يَجْرِ له ذِكْرٌ مطلق، كما هو الضمير مطلق، لكن جرى مضافًا إلى الفجر».

اختُلِف في المعنى الذي من أجله خُصَّ النبي – ﷺ – بأنها له نافلة، مع كون صلاة كل مصلٍ بعد هجوده –إذا كان قبل هجوده قد كان أدى فرائضه– نافلة فضلًا، إذ كانت غير واجبة عليه، على قولين: الأول: لأنها فضيلة له؛ إذ غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأما غيره فهو له كفارة، وليس نافلة.

الثاني: لأنها عليه مكتوبة، ولغيره تطوع.

ورجَّح ابنُ جرير (١٥/ ٤١ – ٤٢) القول الثاني الذي قاله ابن عباس، وابن سلام، وانتقد الأول الذي قاله مجاهد، وقتادة، والحسن، وأبو أمامة، مستندًا إلى دلالة السنّة، والدلالة العقلية، فقال: «وأولى القولين بالصواب في ذلك القولُ الذي ذكرنا عن ابن عباس؛ وذلك أن رسول الله – ﷺ – كان الله –تعالى ذِكْرُه– قد خصه بما فرض عليه من قيام الليل، دون سائر أمته.

فأما ما ذكر عن مجاهد في ذلك فقول لا معنى له؛ لأن رسول الله – ﷺ – فيما ذكر عنه أكثر ما كان استغفارًا لذنوبه بعد نزول قول الله – عز وجل – عليه: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: ٢].

كما قال تعالى: قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا [المزمل: 2 – 4].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النبيَّ – ﷺ – سُئِلَ: أيُّ الصَّلاةِ أفضَلُ بعدَ المكتوبةِ؟ فقال: أفضَلُ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ المكتوبةِ الصَّلاةُ في جَوفِ اللَّيلِ)).[154]

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّ نبيَّ الله – ﷺ – كان يقومُ مِن اللَّيلِ حتى تتفطَّرَ قَدَماه)).[155]

عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا.

---

وذلك أن هذه السورة أنزلت عليه بعد منصرفه من الحديبية، وأُنزل عليه: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ عام قُبض، وقيل له فيها: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ [النصر: ٣]، فكان يُعَدُّ له – ﷺ – في المجلس الواحد استغفار مائة مرة، ومعلوم أنّ الله لم يأمره أن يستغفر إلا لما يغفره له باستغفاره ذلك، فبيَّن إذن وجه فساد ما قاله مجاهد».

وذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٢٨) احتمالًا آخر، فقال: «وتحتمل الآية أن يكون هذا على وجه الندب في التنفل، ويكون الخطاب للنبي – ﷺ –، والمراد هو وأمته، كخطابه في قوله: ﴿أقم الصلوات﴾».

وظاهر كلام ابن القيم (٢/ ١٤٩) أنه يرجّح القول الثاني حيث ذكر القولين، ثم قال: «والمقصود أن النافلة في الآية لم يرد بها ما يجوز فعله وتركه، كالمستحب، والمندوب، وإنما المراد بها الزيادة في الدرجات، وهذا قدر مشترك بين الفرض والمستحب، فلا يكون قوله: ﴿نافلة لك﴾ نافيًا لما دل عليه الأمر من الوجوب».

وبنحوه ابنُ تيمية (٥/ ٢٤٤ – ٢٤٥).

(154) رواه مسلم (1163).

(155) رواه البخاري (4837).

أي: افعَلْ هذا الذي أمَرْتُك به[156] –يا مُحَمَّدُ– فيَبعَثَك ربُّك يومَ القيامةِ شَفيعًا في أهلِ المَوقِفِ، فيَحمَدَك الأوَّلونَ والآخِرون.[157]

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النَّبيُّ – ﷺ –: ((إنَّ الشَّمسَ تدنو يومَ القيامةِ، حتى يبلُغَ العَرَقُ نِصفَ الأُذُنِ، فبينا هم كذلك استغاثوا بآدَمَ، ثمَّ بموسى، ثمَّ بمُحَمَّدٍ – ﷺ –، فيَشفَعُ

---

(156) قيل: المراد: أمْرُه بما سبقَ مِن إقامةِ الصَّلواتِ المفروضةِ في أوقاتِها والتهَجُّدِ مِن اللَّيلِ بالقُرآنِ؛ لعَلَّ اللهَ أن يَبعَثَه المقامَ المحمودَ.

وممَّن قال بذلك: ابن جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (43/15).

وقيل: جاءت جملةُ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ تعليلًا لتَخصيصِه بإيجابِ التهَجُّدِ عليه.

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (185/15).

(157) قال الرازي: (اتَّفق المفسرونَ على أنَّ كلمةَ عَسَى مِن اللهِ واجبٌ، قال أهلُ المعاني: لأنَّ لفظةَ «عسى» تفيدُ الإطماعَ، ومَن أطمَعَ إنسانًا في شيءٍ ثمَّ حرَمه كان عارًا، واللهُ تعالى أكرمُ مِن أن يُطمِعَ أحدًا في شيءٍ ثمَّ لا يُعطيه ذلك).

((تفسير الرازي)) (387/21).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (42/15، 43).

ومَقَامًا مَحْمُودًا قيل: نُصِب على الظرفِ بإضمارِ فعلِه، أي: عسى أن يبعثك فيقيمَك مقامًا محمودًا، أو ضمَّن يَبْعَثَكَ معنَى: يقيمَك، ويجوزُ أن يكونَ حالًا بمعنَى: أن يبعثَك ذا مقامٍ محمودٍ.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (687/2)، ((تفسير الرسعني)) (217/4)، ((تفسير البيضاوي)) (264/3).

قال الواحدي: (إجماعُ المُفَسِّرينَ على أنَّ المقامَ المحمودَ هو مقامُ الشَّفاعةِ).

((الوسيط)) (122/3).

وقال ابنُ جرير: (اختلف أهلُ التأويلِ في معنى ذلك المقامِ المحمودِ، فقال أكثرُ أهلِ العلمِ: ذلك هو المقامُ الذي هو يقومُه صلَّى الله عليه وسلَّم يومَ القيامةِ للشفاعةِ للناسِ).

((تفسير ابن جرير)) (43/15).

لِيُقضَى بين الخَلقِ، فيمشي حتى يأخُذَ بحَلقةِ البابِ، فيَومَئذٍ يَبعَثُه اللهُ مَقامًا محمودًا، يَحمَدُه أهلُ الجَمعِ كُلُّهم)). (158)

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عنه، في حديثِ الشفاعةِ الطويلِ، وسؤالِ الناسِ يومَ القيامةِ الأنبياءَ الشفاعةَ: آدمَ ونوحًا وإبراهيمَ وموسَى وعيسَى عليهم السلامُ إلى أن يأتوا محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم ويأذنَ الله له بالشفاعةِ، ويقولَ له بعدَ أن يقعَ له ساجدًا: ((ارفعْ مُحَمَّدُ، وقلْ يُسمَعْ، واشفعْ تشفَّعْ، وسلْ تُعْطَ. قال: فأرفع رأسي، فأُثني على ربي بثناءٍ وتحميدٍ يعلِّمُنيه، ثم أشفعُ فيحدُّ لي حدًّا، فأخرجُ فأُخرجُهم مِن النارِ، وأُدخلُهم الجنة)) إلى أن يقولَ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((حتى ما يبقَى في النارِ إلَّا مَن حبَسه القرآنُ)) أي: وجَب عليه الخلودُ، قال: ثم تلا هذه الآيةَ: عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا قال: ((وهذا المقامُ المحمودُ الذي وُعِده نبيُّكم - ﷺ -)). (159)

وعن جابِرِ بنِ عَبدِ الله رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ الله - ﷺ - قال: ((مَن قال حينَ يَسمَعُ النِّداءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هذه الدَّعوةِ التَّامَّةِ، والصَّلاةِ القائمةِ؛ آتِ مُحَمَّدًا الوَسيلةَ والفَضيلةَ، وابعَثْه مَقامًا محمودًا الذي وعَدْتَه؛ حَلَّت له شفاعتي يومَ القيامةِ)). (160)

---

(158) رواه البخاري (1475).

(159) رواه البخاري (7440).

(160) رواه البخاري (614).

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((إنَّ النَّاسَ يَصيرونَ يومَ القيامةِ جُثًا،[161] كُلُّ أمَّةٍ تَتبَعُ نَبيَّها، يقولونَ: يا فُلانُ اشفَعْ، يا فُلانُ اشفَعْ، حتى تنتهيَ الشَّفاعةُ إلى النبيِّ – ﷺ –، فذلك يومَ يَبعَثُه اللهُ المقامَ المحمودَ)).[162]

---

(161) جُثًا: أي: جماعاتٍ.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (210/7).

(162) رواه البخاري (4718).

اختُلِف في معنى المقام المحمود على قولين: الأول: أنه الشفاعة.

وهو قول الأكثرين.

الثاني: إجلاس الله للنبي على عرشه.

قاله مجاهد.

ورجَّح ابنُ جرير (١٥/ ٤٧) القول الأول مستندًا إلى السنة، والآثار، ثم قال (١٥/ ٥١): «وهذا وإن كان هو الصحيح من القول في تأويل قوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ لما ذكرنا من الرواية عن رسول الله – ﷺ – وأصحابه والتابعين، فإنّ ما قاله مجاهد من أن الله يُقعد محمدًا – ﷺ – على عرشه قول غير مدفوع صحته، لا من جهة خبر، ولا نظر ...».

وساق عددًا من الوجوه العقلية التي يتخرّج عليها قول مجاهد.

وهو ما انتقده ابنُ عطية (٥/ ٥٢٩) بقوله: «وعضّد الطبري جواز ذلك بشطَط من القول، ولا يخرج إلا على تلطف في المعنى، وفيه بعد».

ثم قال: «ولا ينكر مع ذلك أن يروى، والعلم يتأوله».

وذكر أن من قال بالقول الثاني روى فيه حديثًا، ثم ذكر أن النقاش نقل عن أبي داود السختياني قال: مَن أنكر هذا الحديث فهو عندنا مُتَّهم، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا.

وعلَّق عليه بقوله: «مَن أنكر جوازه على تأويله».

ولم يذكر تأويله، كما لم يبين علة وصفه قول الطبري بالشطط.

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا

(80).

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ.

أي: وقُلْ –يا مُحَمَّدُ– رَبِّ اجعَلْ دُخولي المدينةَ وكُلَّ ما أدخُلُ فيه، مُدخَلًا حَسَنًا، وفِّقْني فيه لِمَرضاتِك، واجعَلْ خُروجي مِن مَكَّةَ وكُلِّ ما أخرُجُ منه، مُخرَجًا حَسَنًا مَرضِيًّا تُوَفِّقُني فيه لطاعَتِك.[163]

---

(163) اختلف في قراءة قوله: ﴿أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾؛ فقرأ قوم: ﴿مُدخل﴾، ﴿مخرج﴾ بضم الميم، وقرأ غيرهم بفتحها.

وذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٣٠) أنّ مَن قرأ بالضم فهو جرى على: أدخلني، وأخرجني، وأنّ مَن قرأ بالفتح فليس بجار على أدخلني، ولكن التقدير: أدخلني فأدخل مَدخل.

لأنّه إنما يجري على: دخَل.

اختلف في المراد بمدخل الصدق، والمراد بمُخرج الصدق على أقوال: الأول: أنّ مدخل الصدق: دخوله إلى المدينة حين هاجر إليها.

ومخرج صدق: مخرجه من مكة حين هاجر منها.

الثاني: أدخلني مدخل صدق إلى الجنة، وأخرجني مخرج صدق من مكة إلى المدينة.

الثالث: أدخلني مدخل صدق فيما أرسلتني به من النبوة، وأخرجني منه مخرج صدق.

الرابع: أدخلني في الإسلام مدخل صدق، وأخرجني منه مخرج صدق.

الخامس: أدخلني مكة آمنًا، وأخرجني منها آمنًا.

السادس: أمتني إماتة صدق، وأخرجني من قبري يوم القيامة مخرج صدق.

ورجَّح ابنُ جرير (١٥/ ٥٧ – ٥٨) مستندًا إلى السياق القول الأول الذي قاله ابن عباس من طريق أبي ظبيان، والحسن من طريق عوف، وقتادة من طريق شيبان، وابن زيد، فقال: «لأن ذلك عقيب قوله: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا﴾، وقد دللنا فيما مضى على أنه عنى بذلك: أهل مكة، فإذ كان ذلك عقيب خبر الله عما كان المشركون أرادوا من استفزازهم رسول الله – ﷺ – ليخرجوه عن مكة، كان بيّنًا إذ كان الله قد

وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا.

أي: واجعَلْ لي –يا رَبِّ– مِن عِندِك حُجَّةً بَيِّنةً، ومُلكًا وسُلطةً وغلبةً تُظهِرُ بها ديني، وتَنصُرُني بها على مَن عاداني.(164)

---

أخرجه منها أنّ قوله: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾ أمرٌ منه له بالرغبة إليه في أن يخرجه من البلدة التي همَّ المشركون بإخراجه منها، وأخرجه الله منها مخرج صدق، وأن يدخله البلدة التي نقله الله إليها مدخل صدق».

وكذا رجَّحه ابنُ كثير (٩/ ٦٨)، ولم يذكر مستندًا، وذكر أنه أشهر الأقوال.

ورجَّح ابنُ عطية (٥/ ٥٣٠ ط: دار الكتب العلمية بتصرف) العموم، فقال: «ظاهر هذه الآية والأحسن فيها: أن يكون دعاء في أن يحسّن الله حالته في كل ما يتناول من الأمور، ويحاول من الأسفار والأعمال، وينتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة، فهي على أتمّ عموم، معناها: رَبِّ، أصلح لي وِرْدي في كل الأمور وصدري».

ثم ساق الأقوال، ثم قال: «وما قدمت من العموم التام الذي يتناول هذا كله أصوب».

وعلَّق على القول الأول بقوله: «وتقدم في هذا التأويل المتأخر في الموضوع، فإنه متقدم في القول؛ لأن الإخراج من مكة هو المتقدم، اللهم، إنّ مكان الدخول والفرار هو الأهم».

وظاهر كلام ابن القيم (٢/ ١٥٠) أنّه نحا إلى العموم أيضًا حيث إنّه ذكر أن ما جاء في القول الأول يخرج مخرج المثال، ثم علَّق بقوله: «فإن هذا المدخل والمخرج من أجلِّ مداخله ومخارجه – ﷺ –، وإلا فمداخله كلها مداخل صدق، ومخارجه مخارج صدق؛ إذ هي لله، وبالله، وبأمره، ولابتغاء مرضاته».

(164) اختُلِف في المراد بقوله: ﴿واجعل لي من لدنك سلطانًا نصيرًا﴾ على أقوال: الأول: يعني: مُلكًا عزيزًا أقهر به العصاة.

الثاني: حجة بيّنة.

ورجَّح ابنُ جرير (١٥/ ٥٩ – ٦٠) مستندًا إلى السياق القول الأول الذي قاله الحسن، وقتادة، فقال: «لأن ذلك عقيب خبر الله عما كان المشركون همُّوا به من إخراجه من مكة، فأعلمه الله – عز وجل – أنهم لو فعلوا ذلك عوجلوا بالعذاب عن قريب، ثم أمره بالرغبة إليه في إخراجه من بين أظهرهم إخراج صدق يحاوله له عليهم، ويدخله بلدة غيرها بمدخل صدق يحاوله له عليهم ولأهلها في دخولها إليها، وأن يجعل له سلطانًا نصيرًا على أهل البلدة التي أخرجه أهلها منها، وعلى كل من كان لهم شبيهًا، وإذا أوتي ذلك فقد أوتي –لا شك– حجة بينة».

وكذا رجَّحه ابنُ كثير مستندًا إلى النظائر، والواقع، فقال: «لأنه لا بُدَّ مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾ [الحديد: ٢٥]، وفي الحديث: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

## وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81).

### وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ

أي: وقُلْ -يا مُحَمَّدُ: جاء الحَقُّ مِن عندِ اللهِ وثَبَت، وذهَبَ الباطِلُ المُخالِفُ لِشَرعِ اللهِ واضمَحَلَّ.(165)

---

أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع».

(165) اختُلِف في معنى الحق والباطل في قوله: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾ على أقوال: الأول: أن الحق: هو القرآن.

والباطل: هو الشيطان.

الثاني: أن الحق: عبادة الله تعالى.

والباطل: عبادة الأصنام.

الثالث: أن الحق: الجهاد.

والباطل: الشرك.

الرابع: الحق: هو الإيمان.

والباطل: هو الكفر.

ذكره ابنُ عطية (٥/ ٥٣١).

وذهب ابنُ جرير (١٥/ ٦٢) إلى العموم، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقال: أمر الله تبارك وتعالى نبيه - ﷺ - أن يخبر المشركين أنّ الحق قد جاء، وهو كل ما كان لله فيه رضًا وطاعة، وأن الباطل قد زهق، يقول: وذهب كل ما كان لا رضًا لله فيه ولا طاعة، مما هو له معصية وللشيطان طاعة، وذلك أن الحق هو كل ما خالف طاعة إبليس، وأن الباطل هو كل ما وافق طاعته، ولم يخصص الله -عز ذكره- بالخبر عن بعض طاعاته، ولا ذهاب بعض معاصيه، بل عمَّ الخبر عن مجيء جميع الحق، وذهاب جميع الباطل، وبذلك جاء القرآن والتنزيل، وعلى ذلك قاتل رسول الله - ﷺ - أهل الشرك بالله، أعني: على إقامة جميع الحق، وإبطال جميع الباطل».

وبنحوه ابنُ عطية (٥/ ٥٣١)، فقال: «والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة، فيكون التعبير: جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه، وزَهَقَ الكفر بجميع ما انطوى فيه».

كما قال تعالى: بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ [الأنبياء: 18].

وقال سُبحانَه: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ [سبأ: 48-49].

وقال عزَّ وجلَّ: كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ [الرعد: 17].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((دخَلَ النَّبيُّ - ﷺ - مكَّةَ يومَ الفَتحِ، وحَولَ البَيتِ سِتُّونَ وثَلاثُمئةِ نُصُبٍ،(166) فجَعَلَ يَطعُنُها بعُودٍ في يَدِه، ويقولُ: جاء الحَقُّ وزهَقَ الباطِلُ، جاء الحَقُّ وما يُبدِئُ الباطِلُ وما يُعيدُ)).(167)

إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا.

أي: إنَّ الباطِلَ ذاهِبٌ، لا بقاءَ له عند مجيءِ الحَقِّ.

(166) نُصُب: أي: حَجَر كانوا ينصِبونَه في الجاهليَّةِ ويتَّخِذونَه صَنَمًا يَعبُدونَه، والجمعُ أنصابٌ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (278/4).

(167) رواه البخاري (4287) واللفظ له، ومسلم (1781).

## سورةُ الإسراءِ

### الآيات (82–84)

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (84)

## غريب الكلمات:

وَنَأَى: أي: تباعَد، وأصلُ النأيِ: البعدُ، وهو ضدُّ القربِ.

بِجَانِبِهِ: أي: بنفسِه أو بناحيتِه وقربِه، وأصلُ (جنب): ناحيةٌ.

شَاكِلَتِهِ: أي: ناحِيَتِه وطريقَتِه، وقيل: خَليقَتِه وطبيعتِه. والشَّاكِلةُ مِن الأُمورِ: ما وافَقَ فاعِلَه، وأصلُ (شكل): يدُلُّ على المُماثَلةِ.

## تفسير الآيات:

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82).

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ.

أي: ونُنَزِّلُ مِن[168] القُرآنِ ما هو شِفاءٌ لِما في قُلوبِ المؤمِنينَ مِن الشُّبُهاتِ والشَّهَواتِ، وشِفاءٌ لِما في أبدانِهم مِن الأمراضِ، ورحمةٌ للمؤمنينَ العاملينَ بما فيه، يكونُ سببَ نجاتِهم مِن العذابِ، ودخولِهم الجنةَ، ونيلِ السعادةِ الأبديةِ.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ [يونس: 57].

وقال سُبحانَه: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ [فصلت: 44].

وقال تعالى: وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [الأنعام: 155].

---

(168) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٣١) أن قوله: ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾ يصح أن تكون ﴿مِنَ﴾ لابتداء الغاية، ويصح أن تكون لبيان الجنس، كأنه قال: وننزل ما فيه شفاء من القرآن.

ثم ذكر أن بعض المتأولين أنكر أن تكون ﴿مِنَ﴾ للتبعيض؛ لأنه تحفَّظ من أن يلزمه أن بعضه لا شفاء فيه.

وعلَّق عليه بقوله: «وليس يلزمه هذا، بل يصح أن تكون ﴿مِنَ﴾ للتبعيض بحسب أن إنزاله إنما هو مبعّض، فكأنه قال: وننزل من القرآن شيئًا شيئًا ما فيه كله شِفاءٌ».

وذكر (٥/ ٥٣١ – ٥٣٢) أن استعارته الشفاء للقرآن هو بحسب إزالته للريب، وكشفه غطاء القلب لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى، المقرّرة لشرعه.

ثم ساق احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل أن يراد بالشفاء: نفعه من الأمراض بالرقى والتعويذ ونحوه».

وقال سُبحانَه: قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [الأعراف: 203-204].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريّ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ ناسًا مِن أصحابِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كانوا في سَفَرٍ، فمرُّوا بحَيٍّ من أحياءِ العَرَبِ، فاستَضافوهم فلمْ يُضَيِّفوهم، فقالوا لهم: هل فيكم راقٍ؛ فإنَّ سَيِّدَ الحَيِّ لَديغٌ أو مُصابٌ؟ فقال رَجُلٌ منهم: نَعَم، فأتاه فرَقاه بفاتحةِ الكِتابِ، فبرَأَ الرَّجُلُ، فأُعطِيَ قَطيعًا مِن غَنَمٍ، فأبى أن يَقبَلَها، وقال: حتَّى أذكُرَ ذلك للنبيِّ - ﷺ -، فأتى النبيَّ - ﷺ - فذكَرَ ذلك له، فقال: يا رَسولَ اللهِ، واللهِ ما رَقَيْتُ إلَّا بفاتحةِ الكِتابِ، فتَبَسَّمَ وقال: وما أدراك أنَّها رُقْيةٌ؟! ثمَّ قال: خُذُوا منهم، واضرِبوا لي بسَهمٍ معكم)).[169]

وعن عائشةَ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّ النبيَّ - ﷺ - كان إذا اشتكى يقرأُ على نَفسِه بالمُعَوِّذاتِ، ويَنفُثُ، فلمَّا اشتَدَّ وَجعُه كنت أقرأُ عليه، وأمسَحُ عنه بيَدِه؛ رجاءَ بَرَكتِها)).[170]

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ الله - ﷺ - إذا مَرِضَ أحَدٌ مِن أهْلِه نَفَث عليه بالمُعَوِّذاتِ)).[171]

---

(169) رواه البخاري (5007)، ومسلم (2201) واللفظ له.

(170) رواه البخاري (4439)، ومسلم (2192) واللفظ له.

(171) رواه مسلم (2192).

وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا.

أي: ولا يَزيدُ القرآنُ الظَّالِمينَ أنفُسَهم بالكُفرِ إلَّا هَلاكًا؛ فلا يَزيدُهم سَماعُ القُرآنِ إلَّا بُعدًا عن الحَقِّ، وتكذيبًا وكُفرًا؛ وذلك بسَبَبِ تَكذيبِهم بالقُرآنِ، وتَرْكِهم العَمَلَ به؛ فلا يَنتَفِعونَ به؛ لإعراضِهم عنه.

كما قال تعالى: وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ [التوبة: 124– 125].

وقال سُبحانَه: وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ [فصلت: 44].

وقال عزَّ وجلَّ: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ [البقرة: 26].

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83).

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ.

أي: وإذا أنعَمْنا على الإنسانِ بنعمةٍ -كرزقٍ أو نَصرٍ، أو صِحَّةٍ أو فَرَجٍ- أعرَضَ عن عبادةِ اللهِ وشُكرِه، وذِكرِه وتَدبُّرِ آياتِه، وابتعَدَ عن طاعةِ رَبِّه، فلم يمتَثِلْ أمْرَه، ولم يجتَنِبْ نَهْيَه![172]

كما قال تعالى: وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [يونس: 12].

وقال سُبحانَه: وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا [الإسراء: 67].

وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا.

أي: وإذا أصاب الإنسانَ الضُّرُّ -كفقرٍ أو مرضٍ أو بُؤسٍ- كان قانِطًا مِن الفَرَجِ بعدَ الشِّدَّةِ، يائِسًا مِن رَحمةِ رَبِّه سُبحانَه.

كما قال تعالى: وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ [هود: 9].

---

(172) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٣٢) أن «الإنسان» في هذه الآية لا يراد به العموم، وإنما يراد به بعضه، وهم الكفرة، وهذا كما تقول عند غضب: «لا خير في الأصدقاء، ولا أمانة في الناس».

فأنت تعمم مبالغة، ومرادك البعض، وهذا بحسب ذكر الظالمين والخسارة في الآية، قيل: فاتصل ذكر الكفرة، ثم ساق احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل أن يكون الإنسان في هذه الآية عامًّا للجنس، على معنى: إن هذا الخلق الذميم في سجيته، فالكافر يبالغ في الإعراض، والعاصي يأخذ بحظه منه، وقد قال رسول الله - ﷺ - في مؤمن: «فأعرض فأعرض الله عنه»».

ثم مال إلى الأول، فذكر (٥/ ٥٣٣) أن قوله: ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ يدل دلالة على أن الإنسان أولًا لم يُرِد به العموم، أي: إن الكفار بهذه الصفات، والمؤمنون بخلافها، وكل منهم يعمل على ما يليق به، والرب تعالى أعلم بالمهتدي.

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: 36].

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (84)﴾.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾.

أي: قُلْ –يا مُحَمَّدُ– مُخبِرًا للنَّاسِ: كُلُّ إنسانٍ يعمَلُ على وَفقِ نِيَّتِه، وبحَسَب طريقَتِه التي تَليقُ به، وتُناسِبُ أخلاقَه وطَبيعَتَه، ومَذهَبَه وعادَتَه التي أَلِفَها؛ فالكافِرُ يعمَلُ بما يُشبِهُ طَريقَتَه مِن مُقابَلةِ النِّعَمِ بالمعاصي، والإعراضِ عن المُنعِمِ، والمؤمِنُ يعمَلُ بما يُشاكِلُه مِن شُكرِ النِّعَمِ، ومَحبَّةِ المُنعِمِ بها، والثَّناءِ عليه، والتوَدُّدِ إليه، والحياءِ منه، والمُراقَبةِ له، وتَعظيمِه وإجلالِه عزَّ وجلَّ.[173]

---

(173) لخَّص ابنُ عطية (٥/ ٥٣٣) الاختلاف في المراد بالشاكلة، فقال: «قال مجاهد: ﴿على شاكلته﴾ معناه: على طبيعته.

وقال أيضًا: معناه: على حدته.

وقال ابن عباس: معناه: على ناحيته.

وقال قتادة: معناه: على ناحيته وعلى ما ينوي.

وقال ابن زيد: معناه: على دينه».

ثم قال مرجِّحًا: «وأرجح هذه العبارات قول ابن عباس، وقتادة».

ولم يذكر مستندًا.

ورأى ابنُ كثير (٩/ ٧١) تقارب معنى الأقوال، فقال: «وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى».

[٣٩١٤] علَّق ابنُ عطية (٥/ ٥٣٤) على هذا الأثر بقوله: «وذلك أنه كان عندهم في التوراة: أنّ الروح مما انفرد الله بعلمه، ولا يُطلع عليه أحدًا من عباده».

ثم علَّق على عبارة بعضهم: لا تسألوه.

بقوله: «يعني: –والله أعلم– مِن أنه لا يفسره، فتقوى الحجة عليهم في نبوته».

كما قال تعالى: وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ [هود: 121– 122].

وقال عزَّ وجلَّ: قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ [الأنعام: 135].

وقال سُبحانَه: قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ [الزمر: 39 –40].

فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا.

أي: فرَبُّكم –أيُّها النَّاسُ– أعلَمُ بالمُؤمِنِ والكافِرِ منكم، ومَن هو أهدى طريقًا إلى الحقِّ مِن غيرِه، وسيُجازي كلَّ عامِلٍ بعَمَلِه.

كما قال تعالى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ [النحل: 125].

---

وذكر أن الضمير في ﴿ويسألونك﴾ لليهود، والآية مدنية.

وذكر ابنُ كثير (٩/ ٧٢) أن هذا السياق يقتضي مدنية الآية، وأنها إنما نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية.

وأجاب عن هذا بأمرين: الأول: أنه قد يكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك.

الثاني: أنه نزل عليه وحي بأنه يجيبهم عما سألوا بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية: ﴿ويسألونك عن الروح﴾.

## سورةُ الإسراءِ

## الآيات (85–87)

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85) وَلَئِنْ شِئْنَا
لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (86) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ
كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (87)

## تفسير الآيات:

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85).

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((بينما أنا أمشي مع النَّبيِّ – ﷺ – في حَرثٍ،[174] وهو مُتَّكِئٌ على عَسيبٍ،[175] إذ مَرَّ بنَفَرٍ مِن اليَهودِ، فقال بَعضُهم لبَعضٍ: سَلُوه عن الرُّوحِ، فقالوا: ما رابَكم[176] إليه، لا يَستَقبِلُكم بشَيءٍ تَكرهونَه، فقالوا: سَلُوه، فقام إليه بَعضُهم فسأَلَه عن الرُّوحِ، قال: فأَسكَتَ النَّبيُّ – ﷺ –، فلم يَرُدَّ عليه شيئًا، فعَلِمتُ أنَّه يُوحَى إليه، قال: فقُمتُ مكاني، فلمَّا نَزَل الوَحيُ قال: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)).[177]

---

(174) الحَرثُ: الزَّرعُ.

يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: 69).

(175) عَسيب: أي: عصًا مِن جريدِ النَّخلِ.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (7/211).

(176) ما رابَكم: أي: ما دعاكم إلى سُؤالِه، أو ما شكَّكَم فيه.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (17/137).

(177) رواه البخاري (4721)، ومسلم (2794) واللفظ له.

قال ابنُ كثير: (هذا السِّياقُ يقتضي فيما يظهَرُ باديَ الرأي: أنَّ هذه الآيةَ مَدَنيةٌ، وأنَّها إنَّما نزلت حين سأله اليهودُ عن ذلك بالمدينةِ، مع أنَّ السورةَ كُلَّها مكيَّةٌ.

وقد يجاب عن هذا: بأنَّه قد يكون نزلَت عليه بالمدينةِ مَرَّةً ثانيةً كما نزلت عليه بمكَّةَ قبل ذلك، أو أنَّه نزل عليه الوحيُ بأنَّه يجيبهم عمَّا سألوا بالآيةِ المتقَدِّمِ إنزالُها عليه).

((تفسير ابن كثير)) (5/114).

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (قالت قُرَيشٌ لليَهودِ: أعطُونا شيئًا نسألُ عنه هذا الرَّجُلَ، فقالوا: سَلُوه عن الرُّوحِ، فسألوه، فنزَلت: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا).(178)

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ.

أي: ويسألُك الكُفَّارُ -يا مُحَمَّدُ- عن ماهِيَّةِ الرُّوحِ التي بها الحياةُ؛ ما حَقيقتُها؟

قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- لهم: الرُّوحُ مِن شَأنِ رَبِّي، استأثَرَ بعِلمِها؛ فهو الذي خَلَقها، ولا يعلَمُ حَقيقَتَها أحدٌ غيرُ الله.(179)

---

وقال ابن حجر: (هذا يدُلُّ على أنَّ نزولَ الآية وقعَ بالمدينة، لكنْ روى الترمذيُّ من طريق داود ابن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباسٍ قال: قالت قريشٌ لليهود: أعطونا شيئًا نسألُ هذا الرجُلَ، فقالوا: سلوه عن الرُّوحِ، فسألوه فأنزل الله تعالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، ورجالُه رجالُ مسلم، وهو عند ابنِ إسحاقَ مِن وجهٍ آخرَ عن ابنِ عباس نحوه، ويمكِنُ الجمعُ بأن يتعدَّدَ النزولُ بحَملِ سكوته في المرة الثانية على توقُّعِ مزيد بيانٍ في ذلك، وإن ساغ هذا، وإلَّا فما في الصَّحيحِ أصَحُّ).

((فتح الباري)) (8/401).

(178) أخرجه الترمذي (3140)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (11314)، وأحمد (2309) واللَّفظُ له.

قال الترمذي: (حَسَنٌ صحيحٌ غريبٌ مِن هذا الوجه).

وأخرجه ابنُ حِبَّان في ((صحيحه)) (99)، وصَحَّحه ابنُ دقيق العيد في ((الاقتراح)) (104)، وصحَّحَ إسنادَه الذهبيُّ في ((تاريخ الإسلام)) (1/212)، وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (8/253): (رجالُه رجال مسلم).

وصَحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (3140).

(179) اختُلِف في الروح المسئول عنه على أقوال: الأول: أرواح بني آدم.

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا.

أي: وما آتاكم اللهُ –أيُّها النَّاسُ – مِن العِلمِ إلَّا شَيئًا قَليلًا ممَّا يَعلَمُه سُبحانَه.[180]

---

الثاني: ملك له عشرة الآف جناح.

الثالث: طائفة من الملائكة على صور بني آدم.

الرابع: أنه جبريل – ﷺ –.

الخامس: ملك له سبعون ألف وجه.

السادس: أنه القرآن.

السابع: طائفة مع الملائكة ولا تراهم الملائكة.

الثامن: عيسى بن مريم.

ذكره ابن عطية (٥/ ٥٣٥).

وذكر أن الجمهور على القول الأول الذي قاله ابن عباس من طريق العوفي [الوارد في نزول الآية]، وبيّن أن الرُّوح على هذا القول اسم جنس، ورجَّحه، وانتقد البقية مستندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «وهذا هو الصواب، وهو المشْكل الذي لا تفسير له وهذه كلها أقوال مفسِّرة، والأول أظهرها وأصوبها».

وذكر ابنُ تيمية (٥/ ٢٤٥) أنه على القول بأن المراد بالروح: أرواح بني آدم؛ فإن النص لم يخبر بكيفيتها؛ لأن الإخبار بالكيفية إنما يكون فيما له نظير يماثله، وليست الروح من جنس ما نشهده من الأعيان، فلا يمكن تعريفها بكيفيتها، وإن كانت لها كيفية في نفسها.

وذكر ابنُ القيم (٢/ ١٥٣) أن أكثر السلف بل كلهم على أن الروح المسئول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم، بل الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة، وهو ملك عظيم، وساق حديث ابن مسعود [الوارد في نزول الآية]، ثم رجَّح (٢/ ١٥٣ – ١٥٤ بتصرف) القول بأنه مَلَك، وانتقد القول الأول مستندًا إلى الدلالة العقلية، والقرآن، فقال: «ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحي، وذلك هو الروح الذي عند الله لا يعلمها الناس، أما أرواح بني آدم فليست من الغيب، وقد تكلم فيها طوائف من الناس مِن أهل الملل وغيرهم، فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة. ولم تقع تسميتها في القرآن إلا بالنفس، قال تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة﴾ [الفجر: ٢٧]، ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ [القيامة: ٢]، ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وأما السنة فجاءت بلفظ النفس والروح».

ذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٣٥) أن قوله: ﴿مِن أَمْرِ رَبِّي﴾ يحتمل تفسيرين:

الأول: أن يكون الأمر اسم جنس للأمور، أي: الروح من جملة أمور الله التي استأثر بعلمها، فهي إضافة خلق إلى خالق.

الثاني: أن يكون مصدرًا مِن: أمَر يأمر، أي: الروح مما أمر الله تعالى أمرًا بالكون فكان.

(180) اختُلِف فيمن خوطب بقوله: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ على ثلاثة أقوال: الأول: أنهم اليهود خاصة.

عن أُبَيّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال في قِصَّةِ الخَضِرِ وموسى عليهما السَّلامُ:

((... فلمَّا رَكِبَا في السَّفينةِ جاء عُصفورٌ، فوقعَ على حَرفِ السَّفينةِ فنقرَ في البَحرِ نَقرةً أو نَقرتَينِ، قال لهُ الخَضِرُ: يا موسى، ما نَقَصَ عِلمي وعِلمُكَ مِن علمِ اللهِ إلَّا مِثلَ ما نقَصَ هذا العُصفورُ بِمنقارِه مِن البَحرِ)).(181)

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (86).

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ.

---

الثاني: النبي – ﷺ – وسائر الخلق.

الثالث: أنهم سائلو النبي من اليهود فقط.

ذكره ابنُ عطية (٥/ ٥٣٥)، وأدخل ابنُ جرير (١٥/ ٧٣) تحت هذا القول قول قتادة: إنهم اليهود.

وعلَّق ابنُ جرير (١٥/ ٧٢) على القول الثاني الذي قاله عطاء، وابن جريج، ومقاتل، بقوله: «فإنه عنى بذلك: الذين سألوا رسول الله – ﷺ – عن الروح وجميع الناس غيرهم، ولكن لما ضم غير المخاطَب إلى المخاطَب خرج الكلام على المخاطَبة؛ لأن العرب كذلك تفعل إذا اجتمع في الكلام مخبر عنه غائب ومخاطَب، أخرجوا الكلام خطابًا للجمع».

ورجَّحه (١٥/ ٧٣) مستندًا إلى اللغة، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقال: خرج الكلام خطابًا لمن خوطب به، والمراد به: جميع الخلق؛ لأن علم كل أحد سوى الله وإن كثر في علم الله قليل.

وإنما معنى الكلام: وما أوتيتم أيها الناس من العلم إلا قليلًا مِن كثير مما يعلم الله».

ونقل ابنُ عطية (٥/ ٥٣٥) قولًا بأن المخاطب العالم أجمع، ورجَّحه مستندًا إلى دلالة العموم، فقال: «قالت فرقة: العالم كله. وهذا هو الصحيح؛ لأن قول الله له: ﴿قل الروح﴾ إنما هو أمر بالقول لجميع العالم، إذ كذلك هي أقواله كلها، وعلى ذلك تمّت الآية من مخاطبة الكل».

ثم قال: «ويحتمل أيضًا أن تكون مخاطبة من الله للنبي ولجميع الناس».

(181) رواه البخاري (3401) واللفظ له، ومسلم (2380).

أي: وأُقسِمُ -يا مُحمَّدُ- لَئِنْ أرَدْنا لنُزيلَنَّ القُرآنَ الذي أوحَيناه إليك مِن قَلْبِك، فلا يبقَى منه شَيءٌ مَحفوظٌ في الصُّدورِ ولا مَكتوبٌ في السُّطورِ؛ فكما قَدَرْنا على إنزالِه نَقدِرُ على إذهابِه.

عن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((يَدرُسُ[182] الإسلامُ كما يَدرُسُ وَشْيُ الثَّوبِ،[183] حتى لا يُدرَى ما صِيامٌ، ولا صَلاةٌ، ولا نُسُكٌ، ولا صَدَقةٌ، ولَيُسرَى[184] على كتابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في ليلةٍ، فلا يبقى في الأرضِ منه آيةٌ، وتبقى طوائِفُ مِن النَّاسِ: الشَّيخُ الكَبيرُ والعَجوزُ، يقولون: أدرَكْنا آباءَنا على هذه الكَلِمةِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فنحن نَقولُها!)).[185]

ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا.

أي: ثُمَّ لا تَجِدُ لك -يا مُحمَّدُ- ناصِرًا يَنصُرُك فيَمنَعُنا مِن إزالةِ القُرآنِ مِن صَدرِك، أو يَقومُ برَدِّه إليك بعدَ ذَهابِه عنك.

---

(182) يَدرُسُ: أي: يُمحى ويَخفى أثَرُه.
يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (192/1).
(183) وَشْيُ الثَّوبِ: أي: نَقشُه.
يُنظر: ((حاشية السندي على سنن ابن ماجه)) (498/2).
(184) لَيُسرَى: أي: يُؤتَى عليه كُلِّه ليلًا.
يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (275/1).
(185) أخرجه ابن ماجه (4049)، والحاكم (8636)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (2028).
صحَّح الحاكِمُ إسنادَه على شرطِ مُسلمٍ، وصحَّح إسنادَه ووثَّق رجالَه البوصيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (307/2)، وقوَّى إسنادَه ابنُ حجَر في ((فتح الباري)) (19/13)، وجوَّده ابنُ باز كما في ((الفوائد العلمية)) (569/2)، وصحَّح الحديث الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (4049).

## إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (87).

إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ.

أي: لكِنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لا يشاءُ أن يُذهِبَ القُرآنَ مِن صَدرِك رَحمةً منه بك وبِعبادِه.

إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا.

أي: لا يَذهَبُ اللهُ بالقُرآنِ -يا مُحمَّدُ- لأنَّ فَضلَ اللهِ عليك كان فَضلًا عَظيمًا في الدُّنيا والآخرةِ؛ بالرِّسالةِ، وإنزالِ القُرآنِ، والمَقامِ المَحمودِ يومَ القيامةِ، وغَيرِ ذلك مِن نِعَمِه عليك، فلا يَحرِمُك الفَضلَ الذي أوحاه إليك.

كما قال تعالى: وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا [النساء: 113].

# سورةُ الإسراءِ

## الآيتان (88-89)

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ
النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89)

## غريب الكلمات:

**ظَهِيرًا**: أي: عَونًا، وسُمِّي العَونُ ظَهيرًا؛ لاستنادِ ظَهرِه إلى ظَهرِ صاحِبِه، وأصلُ (ظهر): يدلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ.

**صَرَّفْنَا**: أي: بَيَّنَّا، والصَّرْفُ: ردُّ الشيءِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ.

تفسير الآيتين:

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88).

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ.

أي: قُلْ –يا مُحمَّدُ: لو اتَّفَق جميعُ الإنسِ والجِنّ على أن يأتُوا بمِثلِ هذا القُرآنِ في بلاغَتِه وحُسنِ نَظْمِه وكَمالِ مَعانيه؛ لَما أطاقوا ذلك وما استطاعوه.(186)

وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا.

أي: لا يَأتونَ بمِثلِه ولو تعاوَنَ الإنسُ والجِنُّ، وتناصَروا على ذلك، فكيف بهم إذا حاولوا ذلك مُتفَرِّقينَ؟!

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89).

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ.

---

(186) قال ابنُ عطية (٥/ ٥٤٢): «اختلف الناس في هذا الموضـــع؛ فقيل: إنهم دعوا إلى الســـورة المماثِلة في النظم والغيوب وغير ذلك من الأوصاف، وكان ذلك من تكليف ما لا يطاق، فلما عسر عليهم خفَّف بالدعوة إلى المفتريات. وقيل غير هذا مما ينحلُّ عند تحصيله».

أي: ولقد بيَّنَّا ونوَّعْنا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ الحُجَجَ والبَراهينَ، والمواعِظَ والأمثالَ، والقَصَص والعِبَرَ؛ ليتذكَّروا ويَتَّقوا.

فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا.

أي: فلم يَرْضَ أكثَرُ النَّاسِ إلَّا الكُفرَ بالحَقِّ، والجُحودَ لهذه النِّعمةِ العُظمَى، فجحَدوا بما في القُرآنِ، ورَدُّوا الهُدى، واقترَحوا مِن الآياتِ ما ليس لهم.

## سورةُ الإسراءِ

### الآيات (90-96)

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ
وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ
تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ
نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93)
وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) قُلْ
لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95) قُلْ
كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96)

## غريب الكلمات:

يَنْبُوعًا: أي: عَينًا تَنبُعُ منها الماءُ؛ مِن نَبَعَ الماءُ: إذا ظَهَر.

كِسَفًا: أي: قِطَعًا، جَمعُ كِسْفةٍ: وهي القِطعةُ مِن الشَّيءِ، وأصلُ (كسف): يَدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ.

قَبِيلًا: أي: مُقابَلةً عِيانًا، وأصلُ (قبل): يدُلُّ على مُواجَهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ.

زُخْرُفٍ: أي: ذَهَبٍ، وأصلُ الزُّخرُفِ والزَّخْرفةِ: الزِّينةُ.

## تفسير الآيات:

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90).

أي: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ: لن نُصَدِّقَك -يا مُحَمَّدُ- فيما تقولُ حتى تَفجُرَ لنا مِن أرضِ مَكَّةَ المُجدِبةِ عَينًا تَنبُعُ بمِياهٍ جاريةٍ غَزيرةٍ.

أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91).

أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ.

أي: أو يكونَ لك في مَكَّةَ -يا مُحَمَّدُ- بُستانٌ مِن أشجارِ النَّخيلِ والعِنَبِ.

فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا.

أي: فتُجري الأنهارَ وسْطَ ذلك البستانِ بقوةٍ.

أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92).

أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا.

أي: أو تُسقِطَ السَّماءَ علينا قِطَعًا كما وعَدْتَنا، فعَجِّلْ لنا هذا العذابَ حتَّى نُصدِّقَك!

قال تعالى حاكيًا قولَ قومِ شُعيبٍ له: قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [الشعراء: 185 – 189].

أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا.

أي: أو تأتيَ –يا مُحمَّدُ– باللهِ والملائكةِ، فنُقابِلَهم ونَراهم عِيانًا!(187)

كما قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا [الفرقان: 21].

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93).

---

(187) اختُلِف في معنى «القبيل» هنا على ثلاثة أقوال: الأول: كل قبيلة على حدتها، تعاينهم قبيلةً قبيلةً.

والثاني: المقابلة والمعاينة، يعني: نراهم ونعاينهم.

والثالث: الكفالة والضمان، مِن قولهم: تقبلت كذا، أي: تكفلت به.

ورجَّحَ ابن جرير (١٥/ ٨٣ – ٨٤ بتصرف) القولَ الثانيَ –وهو قول قتادة، وابن جريج– استنادًا إلى اللغة، فقال: «وأشبه الأقوال في ذلك بالصواب: القولُ الذي قاله قتادة مِن أنّه بمعنى: المعاينة، مِن قولهم: قابلت فلانًا مقابلة، وفلان قبيل فلان، بمعنى: قُبالَته ...

وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يقول: إذا وصفوا بتقدير» فعيل «من قولهم: قابلت ونحوها؛ جعلوا لفظ صفة الاثنين والجميع من المؤنث والمذكر على لفظ واحد، نحو قولهم: هذه قبيلي، وهما قبيلي، وهم قبيلي، وهن قبيلي».

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ.

أي: أو يَكونَ لك بَيتٌ مِن ذهَبٍ، كاملُ الحُسنِ والزِّينةِ.(188)

أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ.

أي: أو تَصعَدَ في السَّماءِ درجةً درجةً، ونحن ننظرُ إليك.(189)

وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ.

أي: ولن نُؤمِنَ -يا مُحمَّدُ- بأنَّك رَسولُ اللهِ؛ بمجَرَّدِ صُعودِك في السَّماءِ حتى تُنَزِّلَ علينا كِتابًا مِن عندِ اللهِ نَقرأُ فيه أمْرَنا باتِّباعِك والإيمانِ بك!

قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُشركِينَ: أُنزِّهُ ربِّي عن كُلِّ ما لا يَليقُ به مِن النَّقصِ والعَجزِ، ومِن ذلك تَنزيهُه عن العَجزِ عن فِعلِ ما اقترَحتُم؛ فهو قادِرٌ على كُلِّ شَيءٍ، وتَنزيهُه عن أن تكونَ آياتُه تابعةً لأهوائِكم، وأن يتقَدَّمَ أحَدٌ بين يديه في أمرٍ مِن أمورِ سُلطانِه ومَلَكوتِه، بل هو الفعَّالُ لِما يشاءُ،

---

(188) قال ابنُ عطية (٥/ ٥٤٥): «قال المفسرون: الزخرف: الذهب في هذا الموضع.

والزخرف: ما تُزيِّن به؛ كان بذهب أو غيره، ومنه: ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها﴾ [يونس: ٢٤]».

(189) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٤٥) أن قوله: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ يريد: في الهواء عُلُوًّا، والعرب تسمي الهواء علوًّا: سماء؛ لأنه في حيز السمو.

ثم أورد احتمالًا بأن يكون المراد: السماء المعروفة، ورجَّحه مستندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «وهو أظهر؛ لأنه [أي: النبي ﷺ -] أعلَمهم أن إله الخلْق فيها، وأنه يأتيه خبرها».

إن شاء أجابَكم إلى ما سألتُم، وإن شاءَ لم يُجِبْكم، فما أنا إلَّا بَشَرٌ مِثلُكم، ليس في قُدرتِي الإتيانُ بتلك الآياتِ التي تَطلُبونَها، فلا يأتي بها إلَّا اللهُ وحْدَه، وما أنا إلَّا رَسولٌ منه إليكم، وقد بلَّغتُكم رسالتَه.

كما قال تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ [الكهف: 110].

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ قَالَ بلَفظِ الماضي على الحِكايةِ عن الرَّسولِ - ﷺ -.[190]

2- قراءةُ قُلْ بلَفظِ الأمرِ، أي: إنَّ اللهَ أمَرَ نبيَّه - ﷺ - أن يقولَ: سُبحانَ رَبِّي.[191]

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94).

أي: وما مَنعَ الكُفَّارَ أن يُؤمِنوا بالحَقِّ حين جاءَهم الهُدى مِن عِندِ اللهِ إلَّا قولُهم -جَهْلًا منهم على وجهِ التعَجُّبِ والاستِغرابِ-: أأرسَلَ اللهُ إلينا بما له مِن العَظَمةِ والجَلالِ بَشَرًا مِثْلَنا؟! فهلَّا بعَث إلينا ملَكًا رَسولًا!

(190) قرأ بها ابن كثير وابن عامر.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (309/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 221)، ((معاني القراءات)) للأزهري (101/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 410).

(191) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (309/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (101/2)، ((الحجة)) لأبي علي الفارسي (122/5).

كما قال تعالى: أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا [يونس: 2].

وقال سُبحانَه: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا [التغابن: 5، 6].

قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95).

أي: قُلْ –يا مُحَمَّدُ– لهؤلاء الكافرينَ الذين امتَنَعوا عن الإيمانِ بك؛ استِنكارًا منهم لِأَنْ يَبعَثَ اللهُ بَشرًا رَسولًا: لو كان في الأرضِ مَلائِكةٌ يَمشُونَ عليها كالآدَميِّينَ، ويَسكُنونَها وادِعِينَ فيها ومُستَقِرِّينَ؛ لأرسَلْنا إليهم مِنَ السَّماءِ مَلَكًا مِن جِنسِهم لِيُمكِنَهم مُخالطتُه ورؤيتُه، ويتيسَّرَ لهم مُعاشَرتُه والتلقِّي عنه، وفَهمُ حَديثِه، كما تَقتَضيه الحِكمةُ.

كما قال تعالى: وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ [الأنعام: 8-9].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ [الأنبياء: 7].

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96).

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ.

أي: قُلْ لهم– يا مُحمَّدُ: يكفيني اللهُ شاهِدًا عليَّ وعليكم، وهو يعلَمُ صِدقي ويُؤَيِّدُني بالمُعجِزاتِ، ويُنَزِّلُ عليَّ الآياتِ، وينصُرُني على مَن عاداني، ولو كُنتُ كاذِبًا عليه لانتَقَمَ مني.

كما قال تعالى: وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا [النساء: 79].

وقال سُبحانَه: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ [الرعد: 43].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ [الحاقة: 44 – 47].

إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا.

أي: ويكفي اللهُ شاهِدًا على ذلك؛ لأنَّه خَبيرٌ بأحوالِ عِبادِه وأعمالِهم ونيَّاتِهم، يَعلَمُ المُهتديَ منهم والضَّالَّ، ومَن يَستَحِقُّ منهم الهِدايةَ، ومَن يَستَحِقُّ الإضلالَ، بصيرٌ بهم، وبتَدبيرِهم كيف يشاءُ، وسيُجازيهم جميعًا على أعمالِهم خَيرِها وشَرِّها.

# سورةُ الإسراءِ

## الآيات (97–100)

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا **(97)** ذَلِكَ
جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا **(98)**
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا
لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا **(99)** قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا
لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا **(100)**

## غريب الكلمات:

وَبُكْمًا: أي: لا يَنطِقونَ، جمعُ أبكَم، وهو الذي يُولَدُ أخرَسَ، فكُلُّ أبكَمَ أخرَسُ، وليس كلُّ أخرَسَ أبكَمَ، وأصلُ (بكم): يدُلُّ على الخَرَسِ.

وَصُمًّا: أي: لا يسمعونَ، والصُّمُّ جمْعُ أصَمَّ، والصَّمَم فُقدانُ حاسَّة السَّمْع، وأصْلُه: الصَّلابةُ، وقيل: السَّدُّ، أو: تَضامُّ الشَّيءِ، وزوالُ الخَرقِ والسَّمِّ (الثقب).

خَبَتْ: أي: سَكَنَ لَهَبُها، وصار عليها خِباءٌ مِن رَمادٍ، أي: غِشاءٌ.

وَرُفَاتًا: أي: فُتاتًا، وما تناثَر وبَلِي مِن كلِّ شيءٍ، وأصلُ (رفت): يدلُّ على فتٍّ ولَيٍّ.

قَتُورًا: أي: بخيلًا مُمسِكًا، والقَتْرُ: تقليلُ النَّفَقةِ، وهو بإزاءِ الإسرافِ، وأصلُ (قتر): يدُلُّ على تجميعٍ وتضييقٍ.

تفسير الآيات:

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97).

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ.

أي: ومَن يَهْدِه اللهُ فيُوفِّقْه للإيمانِ به وبِرَسولِه وبما جاء به، فهو المُهتَدي حَقًّا.

وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ.

أي: ومَن يُضلِلْه اللهُ عن الحَقّ، فيَخذُلْه عن الإيمانِ باللهِ ورَسولِه، فلن تَجِدَ لهم –يا مُحَمَّدُ– ناصِرينَ مِن دونِ اللهِ يُنقِذونَهم مِن عذابِه، ويَهدونَهم إلى الحَقّ.

كما قال تعالى: وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ [الرعد: 33، 34].

وقال سُبحانَه: وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا [الكهف: 17].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ [الشورى: 44].

وقال جلَّ جَلالُه: وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ [الشورى: 46].

وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا.

أي: ونجمَعُ الضَّالِّينَ يومَ القيامةِ وهم يمشُونَ على وُجوهِهم عُمْيًا لا يُبصِرونَ، وبُكْمًا لا يتكَلَّمونَ، وصُمًّا لا يَسمَعونَ.[192]

كما قال تعالى: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ [الصافات: 22– 23].

وعن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رَجُلًا قال: يا رَسولَ اللهِ، كيف يُحشَرُ الكافِرُ على وَجْهِه يومَ القيامةِ؟! قال: أليسَ الذي أمشَاه على رِجْلَيه في الدُّنيا قادِرًا على أن يُمشِيَه على وَجْهِه يومَ القيامةِ؟!)) قال قتادةُ: بلى وعِزَّةِ رَبِّنا.[193]

مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ.

أي: مَقَرُّ الضَّالِّينَ ومَنزِلُهم جهنَّمُ.

---

(192) قال ابنُ عطية (٥/ ٥٤٦): «أخبر – عز وجل – أنهم يحشرون على الوجوه عميًا وبكمًا وصمًّا، وهذا قد اختلف فيه، فقيل: هي استعارات؛ إما لأنهم من الحيرة والهم والذهول يشبهون أصحاب هذه الصفات، وإما من حيث لا يرون ما يسرهم ولا يسمعونه ولا ينطقون بحجّة».

وقيل: هي حقيقة كلها، وذلك عند قيامهم من قبورهم، ثم يرد الله إليهم أبصـــارهم وسمعهم ونطقهم، فعند رد ذلك إليهم يرون النار، ويسمعون زفيرها، ويتكلمون بكل ما حكي عنهم في ذلك".

وبنحوه ابنُ جرير (١٥/ ٩٣ – ٩٤).

(193) رواه البخاري (6523)، ومسلم (2806) واللفظ له.

كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا.

أي: كُلَّما سكَنَ لَهيبُ نارِ جهنَّمَ في أجسامِ الكافرينَ، وتهَيَّأَت للانطِفاءِ، زِدْناهم نارًا تتلَهَّبُ وتتأجَّجُ في أجسامِهم.(194)

كما قال تعالى: وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ [النساء: 55– 56].

وقال سُبحانَه: فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا [النبأ: 30].

وقال عزَّ وجَلَّ: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ [الزخرف: 74– 75].

وقال تبارك وتعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ [فاطر: 36].

---

(194) قال ابنُ عطية (٥/ ٥٤٧): «قوله: ﴿كلما خبت﴾، أي: كلما فرغت من إحراقهم، فسكن اللهيب القائم عليهم قدر ما يعادون، ثم تثور، فتلك زيادة السعير.

قاله ابن عباس.

فالزيادة في حيِّزهم، وأما جهنم فعلى حالها من الشِّدَّة لا يصيبها فتور».

ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا

.(98)

ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا.

أي: جزاءُ المُشرِكِينَ بحَشرِهم على وُجوهِهم عُمْيًا وبُكمًا وصُمًّا، وإدخالِهم جهنَّمَ وزيادتِهم مِن عذابِها، هو بسَبَبِ كُفرِهم في الدُّنيا بحُجَجِنا وأدِلَّتِنا، ولم يَظلِمْهم اللهُ سُبحانَه، بل جازاهم بما يستَحِقُّونَ.

وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا.

أي: وبسَبَبِ قَولِهم إنكارًا لوُقوعِ بَعْثِهم يومَ القيامةِ: أئِذا صِرْنا في قُبورِنا عِظامًا باليةً وتُرابًا، هل سيَبعَثُنا اللهُ بعدَ مَوتِنا خلقًا جديدًا؟!

كما قال تعالى: وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [الرعد: 5].

وقال سُبحانَه: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ [سبأ: 7].

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (99).

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ.

أي: أولَمْ يَنظُرْ هؤلاء المُنكِرونَ للبَعثِ فيَعلَموا أنَّ اللهَ الذي خلقَ السَّمواتِ والأرضَ، وابتَدَعَها من العَدَمِ بقُدرتِه، على غيرِ مِثالٍ سابقٍ –وهي أعظَمُ منهم– قادِرٌ أيضًا على إعادةِ خَلقِهم بعدَ فَناءِ أجسادِهم؟! فالقادِرُ على خَلْقِ ما هو أكبَرُ وأعظَمُ منكم أقدَرُ على خَلْقِكم بلا شَكٍّ.

كما قال تعالى: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ [يس: 81].

وقال سُبحانَه: لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [غافر: 57].

وقال عزَّ وجلَّ: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [الأحقاف: 33].

وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ.

أي: وجعَلَ اللهُ لِمَوتِ المُشرِكِينَ وبَعْثِهم يومَ القيامةِ وَقتًا مُحَدَّدًا لا شَكَّ في مَجيئِه.(195)

كما قال تعالى: ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ [هود: 103، 104].

فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا.

أي: فأبى المُشرِكونَ إلَّا جُحودًا وتَكذيبًا بوُقوعِ بَعثِهم يومَ القيامةِ، وجُحودًا لنِعمَتِه عليهم، وتَمادِيًا في عبادةِ غَيرِه؛ ظلمًا منهم، بعدَ قيامِ الحجَّةِ عليهم.

قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (100).

---

(195) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٤٩) في الأجل احتمالين، فقال: «والأجل هنا يحتمل أن يريد به: القيامة. ويحتمل أن يريد: أجل الموت».
ثم علّق على الاحتمال الثاني قائلًا: «والأجل على هذا التأويل اسم جنس؛ لأنه وضعه موضع الآجال».

قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ.

أي: قُلْ –يا مُحَمَّدُ– لهؤلاء المُشرِكِينَ: لو أنَّكم تَملِكونَ ما يَملِكُه اللهُ مِن خزائِنِ الرِّزقِ، إذَنْ لأمسَكْتُم عن أن تُعطُوا منها لأحَدٍ شَيئًا؛ خَشيةً مِن الإنفاقِ لشِدَّةِ بُخلِكم، وخَوفِكم مِن الفَقرِ لنَفادِ الخَزائِنِ، مع أنَّها لا تَنفَدُ أبدًا!

كما قال تعالى: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا [النساء: 53].

وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا.

أي: وكان الإنسانُ بخيلًا مُمسِكًا مُضيّقًا، قد طُبع على البخلِ والشُّحِّ.

كما قال تعالى: إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ [المعارج: 19 – 22].

# سورةُ الإسراءِ

## الآيات (101–104)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (102) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (103) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (104)

## غريب الكلمات:

**بَصَائِرَ**: أي: حُجَجًا، وبَراهِينَ واضِحةً تقودُ إلى العِلمِ والحَقِّ، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على وُضوحِ الشَّيءِ، وظهورِه، وبيانِه.

**مَثْبُورًا**: أي: مُهلَكًا، وأصلُ (ثبر): يدُلُّ على هَلاكٍ.

**يَسْتَفِزَّهُمْ**: أي: يُزعِجَهم، أو يستخفَّهم حتى يَخْرجوا، وأصلُ (فزز): يدلُّ على خِفَّةٍ وما قارَبَها.

**لَفِيفًا**: أي: جَميعًا، وأصلُ (لفف): يَدُلُّ على تَلَوِّي شَيءٍ على شَيءٍ.

## تفسير الآيات:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101).

### وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ.

**أي: ولقد آتَينا موسَى تِسعَ مُعجِزاتٍ واضِحاتٍ، ودلائِلَ قاطِعاتٍ، تُبَيِّنُ صِدْقَه، وصِحَّةَ نُبُوَّته؛ فلم يُؤمِنْ فرعونُ ولا قومُه برسالةِ موسى، معَ كثرةِ هذه المعجزاتِ التي أُوتِيَها، ووضُوحِها، فكذلك لو أجَبْنا هؤلاء الذين سألوك –يا مُحَمَّدُ– تلك الآياتِ المقترحةَ لما استجابوا ولا آمنوا إلَّا أن يشاءَ اللهُ، فلَسْتَ بأوَّلِ رَسولٍ كذَّبَه النَّاسُ، رغمَ تأييدِه بالمعجزاتِ!**[196]

---

(196) اختلف السلف في تعيين الآيات التسع التي آتاه الله إياها كما هو موضح بالآثار.

وقد نقل ابنُ عطية (٥/ ٥٥٠ – ٥٥١) اتفاق المفســرين على خمس منها، واختلافهم في أربع، فقال: «وقوله تعالى: ﴿ولَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ﴾ اتفق المتأولون والرواة أنّ الآيات الخمس التي في سورة الأعراف هي من هذه التسع، وهي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، واختلفوا في الأربع».

ثم ذكر الخلاف في تعيين هذه الأربع، وعلّق بقوله: «والذي يلزم من الآية أن الله تعالى خص من آيات موسى –إذ هي كثيرة جدًّا تنيف على أربع وعشرين– تسعًا بالذكر، ووصفها بالبيان، ولم يعينها، واختلف العلماء في تعيينها بحسب اجتهادهم في بيانها أو روايتهم التوقيف في ذلك».

وذكر ابنُ كثير (٩/ ٨٧) عن قتادة، ومجاهد، وابن عباس، وعكرمة، والشـعبي أن الآيات التسـع هي: يده، وعصـاه، والسـنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

ورجّحها مستندًا إلى القرآن بقوله: «وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي ...

فهذه الآيات التســع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة هاهنا، وهي المعنية في قوله تعالى: ﴿وألق عصــاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون * إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم

كما قال تعالى: وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ [النمل: 10 – 13].

وقال سُبحانَه: وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ [الأعراف: 130].

وقال عزَّ وجلَّ: فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ [الأعراف: 133].

فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ.

أي: فاسألْ –يا مُحمَّدُ– اليَهودَ المُعاصِرينَ لك حينَ جاءهم مُوسَى بالهُدى والآياتِ البَيِّناتِ.

فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا.

---

* وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين﴾ [النمل: ١٠ – ١٢].

فذكر هاتين الآيتين: العصا واليد، وبين الآيات الباقيات في سورة الأعراف وفصلها».

أي: فقال فرعونُ لِمُوسى عليه السَّلامُ عِنادًا ومُكابَرَةً: إنِّي لأظُنُّك –يا موسى– قد سُحِرت فتأثَّرَ عقلُك وفَسَدَ، وصِرْتَ تَهْذِي، وتأتي بكَلامٍ مُختَلٍّ.(197)

كما قال تعالى: قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ [الشعراء: 27].

قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (102).

---

(197) ذكر ابنُ جرير (١٥/ ١٠٦) في معنى الآية احتمالين، فقال: «وقوله: ﴿فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا﴾ يقول: فقال لموسى فرعون: إني لأظنك –يا موسى– تتعاطى علم السحر، فهذه العجائب التي تفعلها من سحرك، وقد يجوز أن يكون مرادًا به إني لأظنك يا موسى ساحرًا، فوضع مفعول موضع فاعل، كما قيل: إنّك مشئوم علينا وميمون، وإنما هو شائم ويامن.

وقد تأول بعضهم ﴿حجابًا مستورًا﴾ بمعنى: حجابًا ساترًا، والعرب قد تخرج فاعلًا بلفظ مفعول كثيرًا».

وذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٥٢) هذين الاحتمالين، ووجّه الثاني، فقال: «وهذا لا يتخرج إلا على النسب، أي: ذا سحر ملكته وعلمته، فأنت تأتي بهذه الغرائب لذلك، وهذه مخاطبة تنقص».

ثم رَجَّح أنّ ﴿مسحورًا﴾ على بابه، فقال: «فيستقيم أن يكون ﴿مَسْحُورًا﴾ مفعولًا على ظاهره».

وانتقد القول الثاني مستندًا إلى العقل، فقال: «وعلى أن يكون بمعنى: ساحر يعارضنا ما حكي عنهم أنهم قالوا له على جهة المدح: ﴿يا أيُّها السّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ﴾ [الزخرف: ٤٩]؛ فإما أن يكون القائلون هنالك ليس فيهم فرعون، وإما أن يكون فيهم لكنه تنقل من تنقصه إلى تعظيمه، وفي هذا نظر».

قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ.

أي: قال موسى لفِرعَونَ: لقد استيقنْتَ -يا فِرعَونُ- أنَّ هذه الآياتِ التِّسْعَ ما أنزَلَها إلَّا اللهُ ربُّ السَّمَواتِ والأرضِ، الذي لا يَقدِرُ على الإتيانِ بها أحَدٌ سِواه؛ أنزَلَها حُجَجًا واضِحةً تدلُّ النَّاسَ على قُدرةِ اللهِ ووحدانيَّته، وصِدْقِ رِسالتي.

كما قال تعالى: وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا [النمل: 12- 14].

وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا.

أي: وإنِّي لأظُنُّك -يا فِرعَونُ- هالِكًا.(198)

(198) في معنى ﴿مثبورا﴾ خمسة أقوال: الأول: ملعونًا ممنوعًا عن الخير.

الثاني: هالكًا.

الثالث: مخبولًا لا عقل له.

الرابع: مبدلًا.

الخامس: مغلوبًا.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٥/ ١٠٨) مستندًا إلى أقوال السلف، ولغة العرب القول الأول بقوله: «وقوله: ﴿وإني لأظنك يا فرعون مثبورا﴾، يقول: إني لأظنك -يا فرعون- ملعونًا ممنوعًا من الخير.

والعرب تقول: ما ثبرك عن هذا الأمر، أي: ما منعك منه، وما صدك عنه؟ وثبره الله فهو يثبُره ويثبِره لغتان، ورجل مثبور: محبوس عن الخيرات هالك، ومنه قول الشاعر:

إذ أجاري الشيطان في سنن الغي ...

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: عَلِمْتَ قِراءتانِ:

1- قِراءةُ عَلِمْتُ بضَمِّ التاءِ: على معنى إخبارِ موسى عن نَفسِه بأنَّه عالِمٌ بذلك.[199]

2- قِراءةُ عَلِمْتَ بفَتحِ التَّاءِ: على معنى إخبارِ موسى عن فِرعَونَ بأنَّه عالِمٌ بذلك.[200]

فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (103).

فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ.

أي: فأراد فِرعَونُ أن يُخرِجَ بني إسرائيلَ مِن الأرضِ[201] بالقَتلِ، أو بالطَّردِ والإبعادِ منها.

---

ومن مال ميله مثبور

وبنحو الذي قلنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل».

ولم يذكر ابنُ كثير (٩/ ٨٩) من هذه الأقوال سـوى القول الأول والثاني والخامس، ثم علّق على القول الثاني بقوله: «والهالك – كما قال مجاهد– يشمل هذا كله».

(199) قرأ بها الكسائي.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (309/2).

ويُنظر لمعنى هـذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خـالويـه (ص: 221)، ((معاني القراءات)) للأزهري (101/2–102)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 411).

(200) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (309/2).

ويُنظر لمعنى هـذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خـالويـه (ص: 221)، ((معاني القراءات)) للأزهري (101/2–102)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 411).

(201) قال ابنُ عطية (٥/ ٥٥٤): «و﴿الأَرْضِ﴾: أرض مصر، وقد تقدم أنه متى ذكرت الأرض عمومًا فإنما يراد بها ما يناسب القصة المتكلم فيها، وقد يحسن عمومها في بعض القصص».

فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا.

أي: فأغرَقْنا فِرعَونَ في البَحرِ ومَن مَعَه مِن الجُنودِ أجمَعينَ.

وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (104).

وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ.

أي: وقُلْنا –لبني إسرائيلَ– مِن بَعدِ هَلاكِ فِرعَونَ: اسكُنوا الأرضَ.

كما قال تعالى: فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ [الأعراف: 136، 137].

وقال سُبحانَه: فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ [الشعراء: 57 – 59].

وقال عزَّ وجلَّ: وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ [الأعراف: 168].

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا.

أي: فإذا جاء وَقتُ قِيامِ السَّاعةِ، جِئْنا بكم -يا بني إسرائيلَ- وبِعَدُوِّكم مِن قُبورِكم إلى مَوقِفِ القيامةِ جَماعاتٍ مُختَلِطةً مِن جِهاتٍ وأصنافٍ شتَّى، فنُمَيِّزُ سُعَداءَكم مِن أشقيائِكم، ونُجازي كُلًّا بعَمَلِه.(202)

كما قال تعالى: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا [الكهف: 98، 99].

---

(202) اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿لفيفا﴾ على قولين: الأول: مختلطين.

الثاني: جميعًا.

وقد رجح ابنُ جرير (١٥/ ١١١) القول الأول مستندًا إلى اللغة، فقال: «﴿فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا﴾، يقول: فإذا جاءت الساعة -وهي وعد الآخرة- جئنا بكم لفيفًا، يقول: حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة لفيفًا، أي: مختلطين قد التف بعضكم على بعض، لا تتعارفون، ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحَيّه، من قولك: لففت الجيوش، إذا ضربت بعضها ببعض، فاختلط الجميع، وكذلك كل شيء خلط بشيء فقد لفَّ به».

## سورةُ الإسراءِ

### الآيات (105-111)

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (105) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى
النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (106) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ
رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109) قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ
ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ
ذَلِكَ سَبِيلًا (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ
يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (111)

## غريب الكلمات:

مُكْثٍ: أي: تُؤَدَةٍ وتَرَسُّلٍ، وأصلُ (مكث): يدُلُّ على توَقُّفٍ وانتِظارٍ.

يَخِرُّونَ: أي: يَسقُطونَ بِسُرعةٍ، وخَرَّ: سقَط على وَجهِه سُقوطًا يُسمَعُ منه صوتٌ (ويسمَّى خَريرًا)، والخُرورُ والخَرُّ: السُّقوطُ مِنْ عُلوٍّ إِلَى الأرضِ، وأصلُ (خرر): يدُلُّ على اضطِرابٍ، وسُقوطٍ مع صَوتٍ.

لِلْأَذْقَانِ: الأذقانُ جمعُ الذَّقَنِ، وهو مجمعُ اللَّحْيينِ.

تُخَافِتْ: أي: تُخْفِها وتُسِرَّها، وأصلُ (خفت): يَدُلُّ على إسرارٍ وكِتمانٍ.

## تفسير الآيات:

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (105).

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ.

أي: أنزلْنا القُرآنَ وَحْيًا مِن عِندِ اللهِ تعالى لِمَصلحةِ الخَلقِ، مُتَضمِّنًا للحقّ، مُشتَمِلًا على الأخبارِ الصَّادِقةِ، والأحكامِ العادلةِ، ونَزَل به جبريلُ القَويُّ الأمينُ إلى مُحمَّدٍ - ﷺ - بلسانٍ عربيٍّ مُبِينٍ، محروسًا مِنَ الشَّيطانِ، محفوظًا مِن الزيادةِ والنُّقصانِ، لم يَقَعْ في طريقِ إنزالِه تَبديلٌ، ولم يحدُثْ له تغييرٌ ولا تحويلٌ.

كما قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ [النساء: 105].

وقال سُبحانَه: لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ [النساء: 166].

وقال تبارك وتعالى: وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [الأنعام: 114-115].

وقال عزَّ وجلَّ: وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ [الشعراء: 192- 195].

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا.

أي: وما أرسَلْناك -يا مُحَمَّدُ- إلَّا لِتُبَشِّرَ الطَّائِعِينَ بالخَيرِ والثَّوابِ في الدُّنيا، والجَنَّةِ في الآخرةِ، وتُنذِرَ العاصِينَ بالعِقابِ في الدُّنيا والآخرةِ.

كما قال تعالى: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا [البقرة: 119].

وقال سُبحانَه: وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ [الأنعام: 19].

وقال عزَّ وجلَّ: يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا [الأحزاب: 45-47].

وقال تبارك وتعالى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ [الشورى: 7].

وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (106).

وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ.

أي: وقُرآنًا فصَّلْناه وبَيَّنَّاه وأحْكَمْناه، وفرَّقْنا فيه بينَ الحَقِّ والباطِلِ، والهُدى والضَّلالِ؛ لِتَتلُوَه -يا مُحَمَّدُ- على النَّاسِ بتَمَهُّلٍ وتُؤَدةٍ وتَرتيلٍ، ولا تَعجَلْ في تِلاوتِه؛ فإنَّ ذلك أيسَرُ للحِفظِ، وأعْوَنُ على الفَهمِ؛ لِيَتَدبَّرَه النَّاسُ ويتفَكَّروا في معانيه، ويَستَخرِجوا مِن عُلومِه وأسرارِه ومَرامِيه.

كما قال تعالى: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ [النحل: 89].

وقال تبارك وتعالى: كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [فصلت: 3].

وقال سُبحانَه: وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا [المزمل: 4].

وقال عزَّ وجلَّ: وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ [النمل: 91–92].

وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا.

أي: ونزَّلْنا عليك القُرآنَ –يا مُحَمَّدُ– مُفَرَّقًا شيئًا بعد شَيءٍ.

كما قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا [الفرقان: 32].

قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107).

قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا.

أي: قُلْ –يا مُحَمَّدُ– للمُكَذِّبينَ المُعرِضينَ عن القُرآنِ: آمِنوا بالقُرآنِ أو لا تُؤمِنوا به؛ فسَواءٌ آمَنتُم به أم كَفرتُم، فهو حقٌّ في نَفسِه، ولن تَنفَعوا اللهَ إن آمَنْتُم، ولن تَضُرُّوه إن كَفَرْتُم، وإنَّما ضَرَرُ ذلك واقِعٌ عليكم.[203]

إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا.

(203) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٥٦ – ٥٥٧ بتصرف) في الآية احتمالين: الأول: أن يكون ذلك تحقيرًا لهم، والمعنى: «أنكم لستم بحجة، فسواء علينا آمنتم أم كفرتم، وإنما ضرّ ذلك على أنفسكم».

الثاني: أن ذلك وعيد من الله لهم دون التحقير، والمعنى: «فسترون ما تجازون به».

أي: وإنْ تَكفُروا بالقُرآنِ، فإنَّ الذينَ أُوتُوا العِلمَ مِن قَبلِ نُزولِه،(204) مِن مُؤمِني أهلِ الكِتابِ(205) إذا يُتلَى عليهم هذا القُرآنُ يَسقُطونَ سَريعًا على أذقانِهم ساجِدينَ لله تعالى.(206)

كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: 58].

---

(204) في هاء الكناية في قوله تعالى: ﴿من قبله﴾ قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى القرآن، والمعنى: من قبل نزوله.

والثاني: أنها ترجع إلى رسول الله – ﷺ –.

وبحسب هذا الخلاف اختُلف كذلك في قوله: ﴿يتلى عليهم﴾؛ فعلى القول الأول يكون المراد بـ ﴿إذا يتلى عليهم﴾: القرآن.

وعلى القول الثاني يكون المراد به: ما أنزل إليهم من عند الله.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٥/ ١٢٢) مستندًا إلى السياق عود الضمير من قوله: ﴿من قبله﴾ على القرآن، وأنه هو الذي يتلى عليهم، وعلل ذلك بقوله: «وإنما قلنا: عنى بقوله: ﴿إذا يتلى عليهم﴾ القرآن؛ لأنه في سياق ذكر القرآن، لم يَجْرِ لغيره من الكتب ذِكْرٌ فيصرف الكلام إليه، ولذلك جعلت الهاء التي في قوله: ﴿من قبله﴾ مِن ذكر القرآن؛ لأن الكلام بذكره جرى قبله، وذلك قوله: ﴿وقرآنا فرقناه﴾ وما بعده في سياق الخبر عنه، فلذلك وجبت صحة ما قلنا؛ إذ لم يأت بخلاف ما قلنا فيه حجة يجب التسليم لها».

(205) أفادت الآثارُ أنّ المراد بالذين أوتوا العلم: هم ناس من أهل الكتاب.

وزاد ابنُ عطية (٥/ ٥٥٦) قولين آخرين: أحدهما: هم ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، ومن جرى مجراهما.

ثانيهما: أن المراد بـ ﴿الذين أوتوا العلم من قبله﴾: محمد – ﷺ –.

(206) اختلف السلف في المراد بالأذقان على قولين: الأول: أنها الوجوه.

الثاني: أنها اللحى.

وهو قول الحسن.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٥/ ١٢٠) مستندًا إلى اللغة القول الثاني، فقال: «والأذقان في كلام العرب: جمع ذقن، وهو مجمع اللحيين.

وإذ كان ذلك كذلك فالذي قال الحسن في ذلك أشبه بظاهر التنزيل».

وبنحوه ابنُ عطية (٥/ ٥٥٦).

وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108).

وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا.

أي: ويقولونَ: تنزيهًا لربِّنا ممَّا يُضيفُه إليه المُشرِكونَ، وعمَّا يقولُه الجاهِلونَ ممَّا لا يَليقُ بجَلالِه، وتعظيمًا وتوقيرًا له على قُدرتِه التَّامَّةِ، وأنَّه لا يُخلِفُ ما وعَدَ وبَشَّرَ به في الكُتُبِ السَّابقةِ مِن بَعثةِ مُحَمَّدٍ – ﷺ –، وإنزالِ القُرآنِ عليه.

إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا.

أي: إنَّ وعْدَ ربِّنا بإرسالِ نبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإنزالِ القُرآنِ عليه كائِنٌ وواقِعٌ.

وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109).

وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ.

أي: ويَسقُطونَ على أذقانِهم يَبكُونَ خاضِعينَ لِلَّهِ عند سَماعِهم القُرآنَ.

وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا.

أي: ويَزيدُهم القُرآنُ خُضوعًا لله، واستِكانةً له، ورِقَّةً ولِينًا في قُلوبِهم.

قال تعالى: وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ [آل عمران: 199].

وقال عزَّ وجلَّ: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [الزمر: 23].

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (110).

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ.

أي: قُلْ –يا مُحَمَّدُ: إنْ شِئْتُم فقُولوا في دُعائِكم: يا اللهُ، وإنْ شِئْتُم فقُولوا: يا رَحمنُ؛ فكِلاهما اسمٌ للهِ الواحِدِ الذي لا شَريكَ له.

كما قال تعالى: وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا [الأعراف: 180].

أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى.

أي: بأيِّ اسمٍ مِن أسماءِ اللَّهِ دَعَوتُم، فإنَّما تَدعُونَ اللهَ الواحِدَ سُبحانَه؛ فله أحسَنُ الأسماءِ المُتضَمِّنةِ أفضَلَ الأوصافِ، فليس له اسمٌ غَيرُ حَسَنٍ حتى يُنهَى عن دُعائِه به.

كما قال تعالى: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى [طه: 8].

وقال سُبحانَه: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا

يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [الحشر: 22-24].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - قال: ((إنَّ للهِ تِسعةً وتِسعينَ اسمًا؛ مِئةً إلَّا واحِدًا، مَن أحصاها[207] دخَلَ الجَنَّةَ)).[208]

وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما في قولِه عَزَّ وجَلَّ: وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا قال: ((نَزَلَت ورَسولُ اللهِ - ﷺ - مُتوارٍ بِمكَّةَ، فكان إذا صلَّى بأصحابِه رَفَعَ صَوتَه بالقُرآنِ، فإذا سَمِعَ ذلك المُشرِكونَ سَبُّوا القُرآنَ ومَن أنزَلَه، ومَن جاء به، فقال اللهُ تعالى لِنَبيِّه - ﷺ -: وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ فيَسمَعَ المُشرِكونَ قِراءَتَك، وَلَا تُخَافِتْ بِهَا عن أصحابِك، أسْمِعْهم القُرآنَ ولا تَجهَرْ ذلك الجَهرَ، وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا، يقولُ: بينَ الجَهرِ والمُخافَتةِ)).[209]

---

(207) مَن أحصاها: أي: حَفِظَها وأحسنَ المُراعاةَ لها والمحافظةَ على ما تقتَضيه وصَدَّق بمعانيها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (5/17).

(208) رواه البخاري (2736)، ومسلم (2677).

(209) رواه البخاري (4722)، ومسلم (446) واللفظ له.

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (نَزَلَت هذه الآيةُ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ في الدُّعاءِ).(210)

(210) رواه البخاري (7526) واللفظ له، ومسلم (447).

قال ابنُ حَجَرٍ: (هكذا أَطلَقَت عائِشـةُ، وهو أعمُّ مِن أن يكونَ ذلك داخِلَ الصَّـلاةِ أو خارِجَها، وقد أخرَجَه الطَّبريُّ وابنُ خُزَيمةَ والعمري والحاكِمُ مِن طريق حفص بن غياث عن هشام، فزاد في الحديث: «في التشَهُّد»...

ورجَّحَ الطَّبَريُّ حَديثَ ابنِ عَبَّاسٍ، قال: لأنَّه أصَـحُّ مَخرجًا، ثمَّ أسـند عن عطاءٍ قال: «يقولُ قَومٌ: إنَّها في الصَّـلاةِ، وقومٌ إنَّها في الدُّعاء»...

ورجَّحَ النوويُّ وغيرُه قَولَ ابنِ عَبَّاسٍ، كما رَجَّحَه الطَّبريُّ، لكِنْ يَحتَمِلُ الجمعُ بينهما بأنَّها نَزَلَت في الدُّعاءِ داخِلَ الصَّلاةِ).

((فتح الباري)) (8/405، 406).

اختلف السلف في معنى الصلاة في قوله تعالى: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ على قولين: الأول: أنها الدعاء.

الثاني: أنها الصـــلاة المعروفة، وعلى هذا القول ففي المنهي عن الجهر به منها أقوال: الأول: أن الذي نهي عن الجهر به منها: القراءة.

الثاني: عني به: النهي عن الجهر بالتشهد في الصلاة.

الثالث: أن المراد به: إخفاء صلاة النبي بمكة وعدم الجهر بها.

الرابع: أن المعنى: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾: تحسنها من إتيانها في العلانية، ﴿ولا تخافت بها﴾: تسيئها في السريرة.

الخامس: أن المعنى: ولا تجهرْ بصلاة النهار، ولا تخافتْ بصلاة الليل، واتبع أمر الله في هذا.

وذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٥٨) القول الأول، ووجّهه بقوله: «فهذا على حذف مضاف، التقدير: ولا تَجْهَرْ بقراءة صلاتك».

وقد رجّح ابنُ جرير (١٥/ ١٣٦ - ١٣٧) القول الأول مستندًا إلى صحة السند إلى الصحابي، وإلى السياق، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة ما ذكرنا عن ابن عباس في الخبر الذي رواه أبو جعفر، عن سعيد، عن ابن عباس؛ لأنّ ذلك أصح الأســـانيد التي روي عن صـــحابي فيه قول مخرجًا، وأشـــبه الأقوال بما دل عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن قوله: ﴿ولا تجهر بصـــلاتك ولا تخافت بها﴾ عقيب قوله: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء الحســنى﴾، وعقيب تقريع الكفار بكفرهم بالقرآن، وذلك بعدهم منه ومن الإيمان.

فإذا كان ذلك كذلك فالذي هو أولى وأشبه بقوله: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ أن يكون من سبب ما هو في سياقه من الكلام، ما لم يأت بمعنى يوجب صرفه عنه، أو يكون على انصرافه عنه دليل يعلم به الانصراف عما هو في سياقه».

ثم قال عن القول الخامس: «ولولا أن أقوال أهل التأويل مضـت بما ذكرت عنهم من التأويل، وأنا لا نسـتجيز خلافهم فيما جاء عنهم؛ لكان وجهًا يحتمله التأويل أن يقال: ولا تجهر بصلاتك التي أمرناك بالمخافتة بها، وهي صلاة النهار؛ لأنها عجماء، لا

وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا.

أي: ولا ترفَعْ صوتَك –يا مُحَمَّدُ– بقِراءةِ القُرآنِ في صَلاتِك، ودُعائِك وذِكْرِك لله فيها، ولا تُسِرَّ بذلك.[211]

وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا.

أي: واسلُكْ –يا مُحَمَّدُ– طَريقًا وَسَطًا بينَ الجَهرِ والمُخافَتةِ.

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (111).

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا.

أي: وقُلْ –يا مُحَمَّدُ: الثَّناءُ الجَميلُ لله المتَّصِفِ بالكَمالِ، المُنَزَّهِ عن النَّقائِصِ، الذي لم يجعَلْ له ولدًا.

---

يجهر بها، ولا تخافت بصلاتك التي أمرناك بالجهر بها، وهي صلاة الليل، فإنها يجهر بها ﴿وابتغ بين ذلك سبيلا﴾ بأن تجهر بالتي أمرناك بالجهر بها، وتخافت بالتي أمرناك بالمخافتة بها، لا تجهر بجميعها، ولا تخافت بكلها.

فكان ذلك وجهًا غير بعيد من الصحة، ولكنا لا نرى ذلك صحيحًا لإجماع الحجة من أهل التأويل على خلافه».

(211) قال ابنُ عطية (٥/ ٥٥٨) في معنى الخفوت: «هو الإسرار الذي لا يسمعه المتكلم به.

هذه هي حقيقته، ولكنه في الآية عبارة عن خفض الصوت، وإن لم ينته إلى ما ذكرناه».

كما قال تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا [مريم: 88– 92].

وقال سُبحانَه حِكايةً عن قَولِ مُؤمِني الجِنّ: وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا [الجن: 3].

وقال عزَّ وجلَّ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [الإخلاص: 1–4].

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ.

أي: ولا يُوجَدُ أحدٌ يُشارِكُه في مُلكِه وسُلطانِه.

كما قال تعالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ [سبأ: 22].

وقال سُبحانَه: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [الملك: 1].

وقال عزَّ وجلَّ: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [آل عمران: 26].

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ.

أي: ولا يُوجَدُ لله وليٌّ يُناصِرُه ويُدافِعُ عنه، ويتعزَّزُ به، ويُعاوِنُه مِن أجْلِ ذلٍّ فيه أو عَجزٍ أو افتقارٍ -سُبحانَه وتعالى- بل هو الغَنيُّ ذو العِزَّةِ والكِبرياءِ، وكُلُّ شَيءٍ خاضِعٌ له، وتَحت قَهرِه وقُدرتِه، ولا يكونُ إلهًا يُطاعُ ويُعبَدُ، مَن كان ذليلًا مَهينًا مُحتاجًا إلى وَليٍّ.

كما قال تعالى: إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا [يونس: 65].

وقال سُبحانَه: سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ [الصافات: 180].

وقال عزَّ وجلَّ: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ [الأنعام: 18].

وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا.

أي: وعَظِّمْ -يا مُحَمَّدُ- ربَّك تعظيمًا تامًّا شَديدًا، فلا تَعبُدْ غيرَه، وأطِعْ أمْرَه، واجتَنِبْ نَهْيَه، وأخبِرْ عنه بأوصافِه الحُسنى، وأفعالِه العَظيمةِ، ونزِّهْه عن كلِّ آفةٍ ونَقصٍ.

كما قال تعالى: وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ [المدثر: 3].

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ الرابعَ عشرَ

ويليه المجلدُ الخامسَ عشرَ وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الكهفِ

# الفهرس

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة إلكترونية

# المُغني في التَّفسِير

## المُحرِّرُ الجامِعُ لِتفاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا